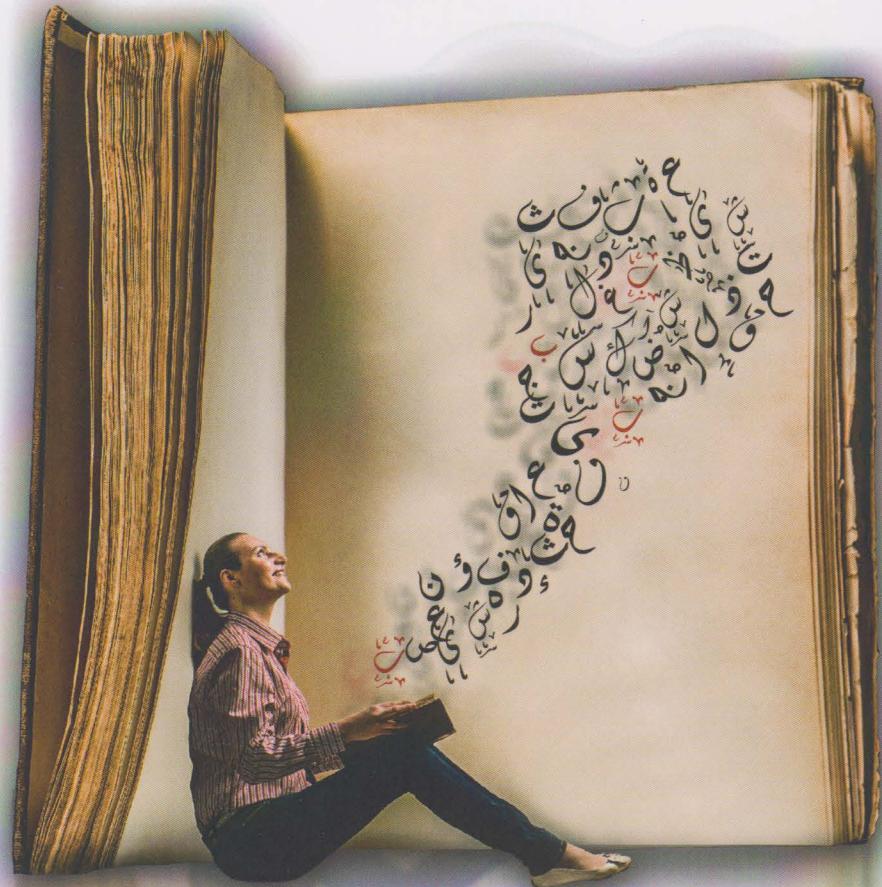


دانیال بِنَك

متعة القراءة



الْمُلْكُ لِلّٰهِ

متعة القراءة

خطوط العناوين: حمدي طهارة
تصميم الغلاف: سومر كوكبي

دانیال بناک

متعة القراءة

نقله عن الفرنسية

يوسف الحمادة



Danniel Pennac, *Comme un roman*
© Editions Gallimard, Paris 1992

الطبعة العربية
© دار الساقى 2015
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2015

ISBN 978-6-14425-797-5

دار الساقى
بنية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب : 5342/113، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114-2033
هاتف: +961-1-866 442، فاكس: +961-1-866 443
email: info@daralsaqi.com

Avec le soutien du



يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi

دار الساقى

Dar Al Saqi

المحتويات

١١	الفصل الأول: ولادة الكيميائي
٥٥	الفصل الثاني: يجب أن تقرأ
٩٣	الفصل الثالث: التشجيع على القراءة
١٣٣	الفصل الرابع: ما الذي سيقرأه الآخرون؟

لأجل فرانكلين ر يست
قارئ الروايات الكبير
والقارئ الروائي.

إلى ذكرى أبي،
وذكرى فرانك فليغ اليومية.

رجاءً (أتوسل إليكم)
لا تستخدموا هذه الصفحات
كوسيلة تعذيب تربوي.

.د. ب.

الفصل الأول

ولادة الكيميائي

لا يتحمّل فعل "قرأ" صيغة الأمر. وهو اشمئزاز تشاشهه إيهه عدة أفعال أخرى
كفعل "أحب" ... وفعل "حلم" ...
طبعاً تبقى المحاولة ممكّنة. هيا لمحاول: "أحبّني!" "احلم!" "اقرأ!"
"أقول لك أقرأ! العمى! آمرك بأن تقرأ!".
- أصعد إلى غرفتك واقرأ!
والنتيجة؟
لا شيء.

لقد نام فوق كتابه. بدت له النافذة فجأةً مفتوحةً بشكلٍ واسع جدًا ومطلةً
على شيءٍ مثير للرغبة. ومنها حلق عالياً، كي يهرّب من الكتاب. لكنه نومٌ
محترز، إذ الكتاب لا يزال مفتوحاً أمامه. ولو شققنا باب غرفته لوجدهنا جالساً
إلى مكتبه يقرأ بروزانة. وحتى لو صعدنا بخفة كبيرة فإنه، من سطح نومه، سيتبّنى
إلى قدومنا.

- ما قولك، أيعجبك الكتاب؟

ولن يجيّب على تساؤلنا إذ سيكون ذلك بمثابة جريمة كبرى، فالكتاب
مقدس. كيف يمكننا بعد ذلك لأنّحب القراءة؟ لا، سيقول لنا فقط إن المقااطع
الوصفيّة طويّلة بشكلٍ مفرط.

وهكذا، بعد أن اطمأننا، نعود إلى تلفازنا. ومن الممكن أيضاً أن تكون
عباراته دافعاً لنقاشه حام بيننا وبين آخرين مثلنا...

- إنه يجد المقااطع الوصفيّة طويّلة جداً. يجب أن نفهم موقفه، ففتحن في
عصر الأجهزة السمعية البصرية. أما روائي القرن التاسع عشر فقد كان عليهم

بالطبع أن يصفوا كل شيء...
- لكن ليس هذا سبباً لكي يقفز فوق نصف عدد الصفحات!...
يجب ألاّ تتعب أنفسنا، فقد نام.

وتزداد عدم قدرتنا على فهم هذا الاشmentاز من القراءة خاصةً إذا كنا ننتمي إلى جيل، إلى مرحلة، إلى وسط، إلى عائلة، حيث كانت الترعة السائدة تقوم بالأحرى على منعنا من القراءة.

- هيا توقف عن القراءة، ستُهلك عينيك!

- من الأفضل أن تخرج للعب ، فالطقس رائع.

- أطفئ النور! فالوقت متأخر!

نعم، لم تكن القراءة ممكناً آنذاك، فقد كان الطقس دوماً رائعاً والليل شديد الحلكة.

لاحظوا أن الفعل في الحالتين، حالة السماح بالقراءة أو منعها، قد صُرّف بصيغة الأمر. حتى في الماضي كنا كما نحن الآن. لقد كانت القراءة حينذاك فعل تمرّد. فإذاً إلى اكتشاف الرواية كانت هناك الإثارة التي يولّدها عدم الخضوع لإرادة الأهل. روعة مضاعفة! آه، يا الذكرى ساعات القراءة تلك التي كنا نختلسها، متخفّفين تحت اللحاف، على ضوء المصباح الب豆وي! كم كانت آنا كارنينا تعدو بسرعة نحو فروننسكي في تلك الساعات من الليل! لقد كان ذائقاً الآثنان عاشقين وكان ذلك جميلاً بما فيه الكفاية، لكنهما كانا يعشقان بعضهما البعض رغم حظر القراءة، وذلك أجمل بكثير! كانا يعشقان بعضهما البعض رغم إرادة الأب والأم، ورغم وظيفة الرياضيات التي كان من الواجب إنهاوها، ورغم "موضوع الفرنسي" الواجب تسليميه، ورغم الغرفة الواجب ترتيبها. لقد كانوا يعشقان بعضهما البعض بدل أن يجلسا إلى مائدة الطعام، ويعشقان بعضهما البعض قبل تناول "الدوسيير"، وكأنما يفضّلان

بعضهما البعض على مبارأة كرة القدم وعلى الذهاب لجمع الفطر... كان كل
منهما قد اختار الآخر وكان يفضله على كل شيء...
تبأ! كم كان جميلاً ذلك الحب!
وكم كانت الرواية قصيرة.

ل لكن عادلين، فنحن لم نفكّر مباشرةً بأن نفرض عليه القراءة كما لو كانت واجباً. لم نفكّر في أول الأمر إلا بمعنته. وقد جعلتنا سنواته الأولى في حالة من النعيم، ومنحتنا دهشته المطلقة أيام هذه الحياة الجديدة نوعاً من العبرية، فتحولنا، لأجله، إلى حكواتيين. منذ أن تفتح على اللغة قصصنا عليه الحكايات، وكانت تلك قدرة لم نكن نعرف أننا نتحلى بها. كانت متعته تلهمنا. وكانت سعادته تمنحنا النفس الطويل. لأجله ضاعفنا عدد الشخصيات وربط الحلقات بعضها ببعض وجعلنا الفخاخ أكثر ذكاءً... وخلقنا له عالماً، كما فعل تولكيان العجوز مع أحفاده. وعلى العد الفاصل بين الليل والنهار، صرنا روائيه.

لو أنها لم نكن نمتلك تلك الموهبة، ولو أنها روينا له قصص الآخرين، وبشكل سيء، باحثين عن كلماتنا، لافظين بشكل خاطئ أسماء العلم، خالطين بين حلقات القصة، جاعلين بداية قصة مع نهاية قصة أخرى، لما كان للأمر أهمية... وحتى لو أنها لم نحك له شيئاً أبداً، وحتى لو أنها اكتفينا بالقراءة بصوت عال، فقد كنّا روائيه هو بالذات، كنّا الحكماوي الوحيد الذي كان ينزلق بفضله، كل مساء، في بيجامة الحلم قبل أن يذوب في شراشف الليل. بل لنقل بالأحرى إننا كنّا بالنسبة إليه "الكتاب" بالإطلاق.

هل تذكرون تلك الحميمية التي من الصعب مقارنتها مع شيء آخر؟
كم كنا نحب إخافته من أجل متعة تعزيته بعدها! وكم كان يطالعنا بذلك

الخوف! من وقتها لم يكن غرّاً، ومع ذلك فقد كان يرتجف. أي أنه كان قارئاً حقيقياً. هكذا كان الثنائي الذي كنّا نشكّله أيامها، هو القارئ، ما ألغنه! ونحن الكتاب، ما أكثر تواطؤه.

خلاصة القول، لقد علمناه كل شيء عن الكتاب، في ذلك الزمن الذي لم يكن يعرف فيه القراءة. لقد فتحنا عينيه على التنوع اللانهائي للأشياء الخيالية، وعرفناه على فرح السفر العمودي، وزوّدناه بالقدرة على أن يكون في كل مكان، وخلصناه من سلطة الزمان، وجعلناه يغطس في عزلة القارئ المسكونة ببعد عجيب... كانت القصص التي كنا نقرؤها له تعج بالأخوة والأخوات، والأباء والأمهات، وبالنثنيات المثلية، وبأسراب ملائكة حارسة، وفرق أصدقاء أو صياء على أحزانه، والذين كانوا في نضالهم ضد غيلائهم الشخصية يجدون، هم أيضاً، ملجاً في الضربات القلقة لقلبه. لقد أصبح بدوره، كقارئ، ملائكة حارساً لهم. بدونه لا وجود لعالمهم. بدونه كان عالمهم سيقى حبيس سماكة عالمه. وهكذا اكتشف الفضيلة المتناقضة للقراءة، وهي فضيلة تجردنا عن العالم كي نجد له معنى.

لقد كان يعود صامتاً من هذه الأسفار. كان الصباح يأتي وكنا ننتقل إلى شيء آخر. في الحقيقة لم نكن نحاول معرفة ما الذي أكتسبه من سفره ذاك. أما هو فكان، بكل براءة، يحافظ على سرّه. كان ذلك، كما يقال، عالمه. وكانت علاقاته الخاصة مع بياض الثلوج أو مع أيّ من "الأفرام السبعة" علاقات حميمية تتطلب السرية. ما أكبرها من متعة للقارئ، متعة الصمت بعد القراءة! نعم، لقد علمناه كل ما يخص الكتاب.

وفتحنا بشكل رائع شهيتها للقراءة.

لدرجة أنه - أتذكرون؟ - لدرجة أنه كان "يستعجل تعلم القراءة"!

٥

كم كنا تربوين، عندما لم نكن نهتم للتربية!

وها هو الآن، مراهق متزوّ في غرفته، أمام كتاب لا يقرأه. رغبته في أن يكون في مكان آخر تجعل بينه وبين الصفحات المفتوحة حاجزاً قاتماً يغبس السطور. إنه جالس أمام نافذته والباب مغلق من ورائه. صفحة ٤٨. إنه لا يجرؤ على عدد الساعات التي أمضاها حتى وصل إلى هذه الصفحة الثامنة والأربعين. ويضمّ الكتاب بالتحديد أربعين وستة وأربعين صفحة. يعني تقريراً خمسمائة صفحة. ٥٠٠ صفحة! لو كان هناك فقط بعض الحوارات. أتمنّ! إنها صفحات محشوة حشوأ بسطور مضغوطة بين هوامش ضيقة جداً، ومقاطع سوداء مكثدة الواحد فوق الآخر، وهنا، وهناك، إحسان حوار - شحطة، تبدو مثل واحدة، تشير إلى أن شخصية تتكلم إلى أخرى. لكن الشخصية الأخرى لا ترد عليها. يتبع ذلك كتلة من الثنائي عشرة صفحات! الثنائي عشرة صفحات من الحبر الأسود! يا لندرة الهواء! أف، ما أقل الهواء هنا! اللعنة، اللعنة! يشتتم. إنه آسف، ولكنه يشتتم. اللعنة اللعنة اللعنة على هذا الكتاب الغبي! الصفحة ثمانية وأربعون... وياليته كان يتذكر محتوى الصفحات السبع والأربعين الأولى! إنه لا يجرؤ حتى على طرح السؤال على نفسه - هذا السؤال الذي سيُطرح عليه حتماً. ها قد حل ليل الشتاء. ومن أعماق المنزل تصعد نحوه عناوين نشرة أخبار التلفزيون. ما زال عليه أن "يعلّك" نصف ساعة أخرى قبل أن يحين موعد العشاء. إن الكتاب شيء ثخين جداً، من الصعب الإتيان عليه. ويقال إنه يحترق بصعوبة! حتى النار لا يمكنها أن تخلل صفحاته، بسبب قلة الأوكسجين. كل هذه الأفكار تراوده على هامش قراءته. وهامشه هو كبير جداً. إن الكتاب سميك، كثيف، غليظ، إنه لشيء ثقيل راض. صفحة أربعة

وثمانين أو مائة وأربعة وثمانين، ما الفرق؟ المشهد هو هو. إنه يستعيد حركة شفاه الأستاذ وهو يلفظ العنوان. ويسمع السؤال المشترك لزملاء الصحف:

- ما عدد صفحاته؟

- ثلاثة أو أربعين؟

(كذاب...)

- ومتنى يحب أن ننهيه؟

ويثير إعلان الموعد القاتل جملةً من الاحتجاجات:

- خمسة عشر يوماً؟ أربعين صفحة (خمسين) للقراءة في خمسة عشر يوماً! لن نستطيع ذلك، أبداً، يا أستاذ! لكن الأستاذ لا يفاض.

الكتاب شيء راضٌ وكتلة من الأبدية. إنه الملل مجسداً. إنه الكتاب. “الكتاب”. وهو لا يطلق عليه اسماً آخر في مواضعه: الكتاب، كتاب، الكتب، كتب.

”في كتابه أفكار يقول لنا باسكال إن...“

ورغم احتجاجات الأستاذ، باللون الأحمر، بأن هذه التسمية ليست دقيقة، وأنه يجب التكلم عن رواية، عن مقالة، عن مجموعة قصصية، عن ديوان شعر، وأن كلمة ”كتاب“ في حد ذاتها، كونها قادرة على الدلالة على كل شيء، فإنها ليست دقيقة إطلاقاً، فدليل الهاتف كتاب، ومثله القاموس ودليل السياحة والبوم الطوابع وكتاب الحسابات¹...

لكن لا حياة لمن تنادي، فكلمة كتاب ستفرض نفسها من جديد على قلمه في موضوع تعبيره المقبل:

”في كتابه مدام بوفاري يقول لنا فلوبير إن...“

والسبب هو أنّ، من وجهة نظر عزلته الحالية، أيّ كتاب كتاب. وكل كتاب له ثقل موسوعة معارف، من تلك الموسوعات المجلدة تجليداً فنياً مثلاً، كالتي كانت توضع تحتنا فيما مضى عندما كنا أطفالاً لنكون على مستوى طاولة

1 في الفرنسيّة نقول كتاب الحسابات بينما في العربية دفتر الحسابات. (م)

الطعام في البيت.

وَتَقْلُ كلَّ كِتَابٍ هُوَ مِنْ تِلْكَ الْأَئْتِقَالِ الَّتِي تَشَدَّكُ نَحْوَ الْأَسْفَلِ. لَقَدْ جَلَسَ
خَفِيفاً عَلَى كَرْسِيهِ، قَبْلَ قَلِيلٍ، بِخَفْفَةٍ مِنْ اتَّخِذَ قَرَارًا. لَكُنَّهُ، بَعْدَ عَدْدٍ مِنْ صَفَحَاتِ
شِعْرِ بَنْفَسِهِ وَقَدْ غَزَاهُ ذَلِكُ الْثَقْلُ الْاعْتِيَادِيُّ، ثَقْلُ الْكِتَابِ، ثَقْلُ الْمَلَلِ، الْثَقْلُ
الَّذِي لَا يَحْتَمِلُ لِلْجَهَدِ الْعَقِيمِ.

جَفَنَاهُ يَعْلَمَانَ لَهُ عَنِ الْغَرْقِ الْوَشِيكِ.

لَقَدْ فَتَحَ الْجَرْفُ الصَّخْرِيُّ لِلصَّفَحَةِ ٤٨ هُوَ تَحْتَ مَسَارِ سَفِينَةِ قَرَارَتِهِ.
وَهَاهُوَ الْكِتَابُ يَشَدَّهُ نَحْوَ الْأَسْفَلِ.
فِي غَرْقَانِ مَعًا.

- أثناء ذلك كانت فكرة ”التلفزيون المفسد“ تحظى بقبول الموجودين أمام التلفاز في الطابق السفلي.
- الحماقة، قلة الأدب، عنف البرامج... شيء غير معقول! لم يعد بالإمكان تشغيل الجهاز دون رؤية...
 - الرسوم المتحركة اليابانية... هل سبق ورأيتم أحد هذه الرسوم المتحركة اليابانية؟
 - ليست المسألة مسألة برنامج فقط... إنه التلفزيون بذاته... السهولة... سلبية المشاهد...
 - صحيح، نشغل، نجلس...
 - نقلب المحطات...
 - تشتت...
 - على الأقل يسمع ذلك بتجنّب الإعلانات.
 - ولا حتى هذا. فقد طوروا نظاماً يجعل البرامج متزامنة، بحيث إن هربت من إعلان وقعت على إعلان آخر.
 - وأحياناً يكون نفس الإعلان.
- وهنا ساد الصمت بفضل هذا الاكتشاف المفاجئ لـأحدى ”نقاط الالقاء“ وقد أضاءها الإشعاع المعمي لجلاء فكرنا، نحن البالغين.
- وعندما يقول أحدهم بصوت منخفض:
- القراءة، طبعاً، شيء مختلف، القراءة فعل!
 - كلامك صحيح تماماً، القراءة فعل، ”فعل القراءة“، صحيح تماماً.

- بينما التلفزيون، وحتى السينما إذا فكرنا جيداً... يعطي لك الفيلم كل شيء، لا شيء تحصل عليه بمجهودك، كل شيء يقدم لك على طبق: الصورة، الصوت، الديكور، الموسيقا المرافقة في حال لم نكن قد فهمنا قصد المخرج...

- الباب الذي يصدر صريراً ليبيّن لك أنه جاءت اللحظة التي يجب أن تفرع فيها...

- عندما نقرأ يجب أن "نتخيل" كل هذا... القراءة فعل خلق دائم.
الصمت من جديد.

(صمت بين "حالفين دائمين" هذه المرة)
ثم:

- ما يصادمني، أنا، هو عدد الساعات التي يقضيها الأولاد أمام التلفاز مقارنة بساعات اللغة الفرنسية في المدرسة. لقد قرأت إحصاءات بهذا الخصوص.

- لا بد وأن النتائج فظيعة!

- واحد على ستة أو على سبعة. دون أن نحسب ساعات السينما. يقضي الطفل (طبعاً لا أتكلّم عن طفلنا) بشكل وسطي - كحدّ أدنى - ساعتين كل يوم أمام جهاز التلفاز وثمانين ساعات خلال عطلة نهاية الأسبوع. أي ما مجموعه ست وثلاثون ساعة، مقابل خمس ساعات لغة فرنسية في الأسبوع.

- طبعاً، لا يمكن للمدرسة أن تقاوم.
صمت للمرة الثالثة.

صمت الهوّات التي لا تُسبّ أغوارها.

الخلاصة، كان بإمكاننا أن نقول أشياء كثيرة لقياس المسافة التي تفصله عن الكتاب.

ولقد قلناها ”كلها“ فعلاً.

مثلاً، إن التلفزيون ليس السبب الوحيد.

وإن العقود التي تفصل بين جيل أطفالنا وأيام شبابنا نحن كقراء تعادل قرونًا من الزمن.

بحيث أن، إن كنا نشعر أننا، نفسياً، أقرب إلى أطفالنا من قرب آبائنا إلينا، فإننا، فكريأً، بقينا أقرب إلى آبائنا.

(عند هذه النقطة، جدل، نقاش، تحديد لمعاني المنصوبات ”نفسياً“ و”فكرياً“. تعزيز بمنصب آخر: عاطفياً)
- أقرب إليهم عاطفياً، إن كنت تفضل.
- فعلياً؟

- لم أقل فعلياً، قلت عاطفياً.

- أي أننا، بكلام آخر، أقرب إلى أطفالنا عاطفياً، لكن أقرب إلى آبائنا فعلياً،
أهذا ما أردت قوله؟

- هذه ”حالة اجتماعية“. تراكم ”حالات اجتماعية“ يمكن تلخيصها على الشكل التالي: أطفالنا هم أبناء وبنات عصرهم بينما نحن لم نكن سوى أطفال أهالينا.

- ؟...

- طبعاً! عندما كنا مراهقين لم نكن زبائن مجتمعنا. أقول زبائن من وجهة

نظر تجارية وثقافية. كان المجتمع يومها مجتمع بالغين. ثياب مشتركة، أطباقي طعام مشتركة، ثقافة مشتركة. كان الأخ الأصغر يرث ثياب الأخ الأكبر، كما نأكل نفس الوجبات، في نفس الوقت، على نفس الطاولة، كما نقوم بنفس النزهات يوم الأحد، وكان التلفزيون يربط جميع أفراد العائلة أمام نفس القناة (وكان ذلك القناة الواحدة أفضل من كل القنوات الموجودة اليوم...)، ومن ناحية القراءة، كان هم الأهالي الوحيد هو في وضع بعض الكتب على الرفوف التي لا يمكن أن نطالها.

- أما الجيل الأسبق، جيل أجدادنا، فقد كان يحرّم بكل بساطة القراءة على الفتيات.

- صحيح! خاصة قراءة الروايات، لأن "الخيال خراب البيت". وهذا ليس في صالح الزواج...

- بينما اليوم... يُعدّ المراهقون زبائن حقيقين في مجتمع يلبسهم ويسليهم ويغذيهم وينتفعهم. في مجتمع تتكاثر فيه مطاعم الماكدو وماركات الوستون^١ والشوفينيون^٢ وغيرها. كنا نذهب إلى "البوم"^٣ والآن يذهبون إلى "العلبة"^٤، كنا نقرأ كتاباً، والآن "يطرون كاسيتات"^٥... كنا نحب التواصل على أنغام البيتلز، بينما ينغلقون على أنفسهم تحت سماعة "الوكمان"... ونرى كذلك هذا الشيء الذي لا يصدق: إذ أن أحياه بأكملها يحتلها المراهقون، ومساحات كبيرة في المدن يهيمنون فيها على وجوههم.

هنا يأتي ذكر بوبور ...

بوبور ...

بوبور - البربرى ...

١ ماركة أحذية. (م)

٢ ماركة ثياب. (م)

٣ اليوم والعلبة كلمتان تعنيان الديسكوبيك (المرقص). (م)

٤ جهاز سمع فردي للموسיקה. (م)

٥ حي في باريس. (م)

بوبور الفاتناسما التي تنغل، بوبور التيهان، المخدرات، العنف... بوبور
وفوهه الميترو... جُحر الهال!¹

- حيث تتدفق جماعات أممية أمام أكبر مكتبات فرنسا العامة!
صمت جديد... من أجمل أشكال الصمت: صمت "ملاك التناقض".

- هل يذهب أولادكم إلى بوبور؟

- نادرًا. لحسن حظنا نسكن في الدائرة الخامسة عشرة.
صمت...

صمت...

- باختصار، هم لا يقرأون.
- لا.

- هناك أمور أخرى كثيرة تشدّ انتباهم.
- نعم.

١ حي آخر في باريس. (م)

وإن لم يكن الذنب ذنب التلفزيون أو الجنون الاستهلاكي، فسيكون الحق على هجمة الإلكترونيات؛ وإن لم يكن الخطأ خطأ الألعاب الإلكترونية فسيكون خطأ المدرسة: تعلم القراءة بشكل خاطئ، عدم ملائمة البرامج المدرسية، عدم كفاءة المدرسين، سوء حالة الصفوف، قلة المكتبات... وماذا أيضاً؟

آه! نعم، ميزانية وزارة التعليم... شيء بائس! والحصة الضئيلة جداً المخصصة للكتاب في هذه الميزانية الميكروسكوبية.
كيف يمكن لابني أو لابنتي، كيف يمكن لأطفالنا، للشباب، أن يقرأوا ضمن هذه الشروط؟
– بالمناسبة، الفرنسيون يقرأون أقل فأقل...
– صحيح.

وهكذا تمضي أحاديثنا. انتصار دائم للغة على قاتمة الأشياء، سكوت مضيء يقول بأكثر مما يصمت. ونحن بحدتنا واستعلامنا لسنا بأغارار عصرنا. العالم بأسره يكمن في ما نقول - والعالم بأسره مضاء بما لا نقول. إننا وأضحو الروية. بل إننا شغفون بوضوح الروية.

لماذا إذاً هذا الحزن المبهم المخيم بعد هذا الحديث؟ لماذا صمت متصرف الليل هذا، في منزل أسلم لنفسه؟ المنظور الوحيد المتبقى هو جلي الصحون؟ بل... على بعد عدة مئات من الأمتار من هنا - وقد وقفت سيارتهم على إشارة حمراء - يخضع أصدقاؤنا لنفس الصمت الذي، بعد أن تنتهي نشوة وضوح الروية، يسيطر على الأزواج، عند عودتهم من السهرة، وهم في سيارتهم التي لا تتحرك. إنه إحساس يشبه شعور ما بعد السكر، أو نهاية التخدير، صعود بطيء نحو الوعي، عودة المرء إلى رشده، ومعه الشعور المبهم المؤلم بأننا لا نتعرف على أنفسنا فيما قلنا. "لم نُصب". رغم أننا لم ننس شيئاً، هذا مؤكد، وكانت أدلةنا صحيحة - لكننا لم نُصب. ما من شك في أنها كانت سهرة إضافية أضعنها في الممارسة المخدرة لوضوح الروية.

وهكذا نظن أننا نعود من السهرة لتنغلق في بيونا ولتكنا في الحقيقة ننغلق على ذواتنا.

ما قلناه منذ قليل، حول المائدة، كان يعكس ما تقوله أنفسنا. كنا نتكلم عن ضرورة القراءة، لكننا في الحقيقة كنا معه، هناك في الطابق العلوي، في غرفه، هو الذي لم يكن يقرأ. كنا نحصي الأسباب المقنعة التي يقدمها له عصرنا كي لا يحب القراءة، لكننا كنا نحاول اجتياز الكتاب - الجدار الذي يفصلنا عنه.

كنا نتكلّم عن الكتاب بينما لم نكن نفكّر إلا فيه.
هو الذي زاد الطين بلةً عندما نزل ليتعشى معنا في اللحظة الأخيرة، وقد
أجلس إلى المائدة، دون كلمة اعتذار واحدة، ثقله كمرافق، إذ لم يقم بأي
جهد للمشاركة في الحديث، ولينهض أخيراً دون أن يتناول “الدوسير” قائلاً:
ـ اعذروني، علي أن أقرأ!

الحميمية المفقودة...

عندما نعاود التفكير، الآن وقد بدأ الأرقُ، في طقس القراءة الذي كنا نقوم به كل مساء على حافة سريره – في ساعة محددة وبحركات لا تغير – فإننا نرى هذا الطقس أشبه شيء بالصلوة. تلك الهدنة المفاجئة بعد صخب النهار، تلك اللقى خارج كل الحوادث المحتملة، ذلك الصمت القدسي قبل أولى كلمات القصة، وأخيراً صوتنا الذي لا يتغير، طقوس الحلقات المتسلسلة... نعم، لقد كانت القصبة المقرورة كل مساء تحقق أجمل وظائف الصلاة، الوظيفة الأكثر تجرداً، والأقل صخباً، والتي لا تعني إلا البشر: غفران الإساءة. لم يكن هناك أي اعتراف بالذنوب، أو أية محاولة للحصول على حظنا من الخلود، بل كانت فقط لحظة مشاركة قربانية فيما بيننا، لحظة غفران النص، لحظة عودة إلى الفردوس الوحيد الذي له قيمة: الحميمية.

لقد اكتشفنا، دون وعي متأ، إحدى أهم وظائف الحكاية، وبشكل أوسع إحدى أهم وظائف الفن بعامة، والتي تكمن في فرض هدنة على صراع البشر. وهكذا كان الحب يكتسي ثوباً جديداً. مجاناً، دون أي هدف نفعي.

مجاناً. هكذا كان يفهم الأمر. هدية. لحظة تختلف عن غيرها. بالرغم من كل شيء. كانت القصة المسائية تزدح عنه ثقل أعباء اليوم. وكقارب تخلص من الجبال التي تشدّه إلى الشاطئ كان ينطلق مع الريح، وقد تخفّف من كل أعبائه، وصوتنا كان تلك الريح.

ولم نكن نطلب منه ولا قرشاً واحداً ثمناً لهذا السفر، لم نكن نطلب منه أدنى مقابل. ولم يكن ذلك حتى مكافأة (آه! المكافآت... كما لو كان عليه أن يُظهر أنه يستحق المكافأة!) هنا، كان كل شيء يتم في عالم المجانية. المجانية، عملة الفن الوحيدة.

ما الذي جرى بينه وبين تلك الحميمية، هو المتعثر الآن بكتاب - صخرة، بينما حاول فهمه (أي حاول أن نطمئن أنفسنا) وذلك ب مجريم العصر وتلفزيونه - الذي قد تكون نسياناً أن نطفئه؟

الحق على الرائي؟

القرن العشرون قرن "رؤية" بشكل مبالغ فيه؟ والقرن التاسع عشر وصفى بشكل مبالغ فيه؟ ولماذا لا يكون القرن الثامن عشر عقلانياً جداً، والسابع عشر كلاسيكيًا جداً، وال السادس عشر نهضوياً جداً، وبوشكين روسيًا جداً، وسوفوكليس بائداً جداً؟ كمالو كانت العلاقات بين الإنسان والكتاب بحاجة للقرون حتى يتبع أحدهما عن الآخر.

عدة سنوات تكفي.

بل عدة أسابيع.

لحظة سوء تفاهم تكفي.

في ذلك الوقت الذي كنا نتكلّم فيه، ونحن بجانب سريره، عن فستان ليلي الأحمر في قصة "لily والذئب"، الوقت الذي كنا نعدد فيه، بأدق التفاصيل، محتويات سلطها، دون أن ننسى أعماق الغابة وأذني الجدة التي نبت عليهما الشعر فجأة وبشكل غريب، وجارور الباب وسقاطه، لا أذكر أنه كان يتبرّم من طول وصفنا لهذه الأشياء.

لم تمض قرون منذ ذلك الوقت. بل تلك اللحظات التي نسميها "الحياة"، والتي نعطيها هيئة أزلية بفرضنا عليها مبادئ غير ملموسة: "يجب أن تقرأ".

في هذا المجال، كما في مجالات أخرى، تبدّت الحياة من خلال تأكل متعنا. سنة من القصص بجانب سريره، نعم. ولتكن ستان. أو خلّها ثلاثة. أي ما يعادل ألفاً وخمساً وتسعين قصة، بمعدل قصة في كل مساء. ١٠٩٥، إنه رقم لا يستهان به! ولم يكن هناك ربع الساعة المخصصة للقصة فقط... بل كان هناك أيضاً الوقت الذي يسبقه. ما الذي سأحكيه لهاليوم؟ ماذا سأقرأ له؟ لقد عرفنا قلق غياب الإلهام.

في البداية ساعدنا هو، إذ أن دهشته لم تكن تطالنا بقصة، بل كانت تطالنا ”نفس“ القصة.

- مرة أخرى، ”عقلة الإصبع“ مرة أخرى! لكن يا حبيبي هناك قصص أخرى غير ”عقلة الإصبع“. العمى! هناك أيضاً... لا، ”عقلة الإصبع“ لا غير.

من كان يتوقع أنه سيأتي يوم نأسف فيه على الزمن الذي كان ”عقلة الإصبع“ وحده يوئس غابة ابننا؟ لولا القليل لكننا لعنة الساعة التي علّمناه فيها التنوّع وكثرة الخيارات.

- لا، لقد سبق وقرأت لي هذه القصة!

ودون أن تصبح هوساً أصبحت مسألة الاختيار مشكلة صعبة الحل. وقد اتخذت قرارات لم تدم طويلاً: الركض يوم السبت القادم إلى مكتبة مختصة والتقليل في أدب الأطفال. ولكن، صباح السبت، كنا نؤجل ذلك إلى السبت الذي يليه. الأمر الذي كان من جهته انتظاراً مقدساً، دخل، من جهتنا، في عداد المشاغل البيتية. مشاغل صغرى، لكنها كانت تنضاف إلى المشاغل الأخرى

الأكبر حجماً. لكن المشاغل التي تتعلق بالممتعة يجب مراقبتها عن قرب،
صغرى كانت أم كبيرة.

لكتنا لم نراقبها.

وعرفنا أيضاً لحظات تمرد.

- لماذا أنا؟ ولماذا لا تفعل ذلك أنت؟ آسف، هذا المساء، أنت من سيقرأ
له قصته!

- تعرف تماماً أنني لا أملك أي خيال...

وكنا، كلما سُنحت الفرصة، نلقى بهذه المهمة على عاتق ابن عم أو ابنة
عمة أو حاضنة، أو إحدى الحالات في زيارة عابرة، على عاتق صوت جديد
ما زال يجد متعة في تمرين القراءة هذا. لكن سرعان ما كانت الممتعة تختفي
 أمام متطلباته كمستمع شديد التدقق:

- لا، ليس هذا ما تجحب به الجدة!

لقد تحايلنا أيضاً وبشكل مخجل. وقد حاولنا، أكثر من مرة، جعل الأهمية
التي كان يعلقها على القصة عملية مساومة.

- إن كررت ذلك، فلن نقرأ لك قصة هذا المساء!

وهو تهديد نادرًا ما نفذناه. الصراخ عليه أو حرمانه من "الدوسير" في نهاية
الوجبة لم يكن ليعطي نتيجة. أما إرساله إلى السرير دون أن نقرأ له قصته، كان
معناه إغراق يومه في ليل حالك السوداء، وكان معناه أن نفارقه دون أن نكون
قد استعدناه. عقوبة لا تُحتمل، لا بالنسبة له ولا بالنسبة لنا.

لكن هذا التهديد، قمنا بالتلتفظ به... آه! لم تلفظ به غالباً... كان تعبيراً
غير مباشر عن التعب أحياناً، أو محاولة نصف مكشوفة لاستخدام ربع الساعة
هذا الشيء آخر، لطارئ منزلي آخر، أو للحظة صمت بكل بساطة... أو لقراءة
تخصنا نحن.

لقد كان الحكواتي فينا متعباً جاهزاً لتسليم الرأية لشخص آخر.

جاءت المدرسة في وقتها.

وتکفلت بالمستقبل.

قراءةً وكتابةً وحساباً ...

في البداية، تحمس للأمر حماساً حقيقياً.

أمر جميل أن تشكل كل هذه الخطوط و”البكلات“ والدوائر وهذه الجسور الصغيرة مجتمعة حروفاً! وأن تشكل هذه الحروف معاً مقاطع، وهذه المقاطع المتجاورة كلمات، فإن ذلك كان مدهشاً جداً له. وأن تكون بعض هذه الكلمات معروفة تماماً بالنسبة إليه، فإن الأمر كان يسحره.

كلمة ماما، مثلاً، ما ما، دائرة يتبعها جسر صغير ثم عصا واقفة، ثم مرة أخرى دائرة فجسر فعصا واقفة أخرى، والتقطة: ماما. كيف يمكن للمرء أن يشفي من روعة كهذه!

لناحاول تخيل الأمر. استيقظ باكراً، وخرج برفقة أمه، نعم برفقة أمه، تحت رذاذ خريفي (نعم، رذاذ خريفي، ونور كنور حوض مائي مهمل - يجب الآ نتوانى عن جعل المناخ درامياً)، وتوجه نحو المدرسة متلفعاً تماماً بدفعه، فراشه، ومازالت في فمه بقية طعم شراب الشوكولا، وهو يشد بقوه على اليد التي في مستوى أعلى من مستوى رأسه، يمشي مسرعاً مسرعاً، ويقوم بخطوتين في حين تقوم أمه بخطوة واحدة، وحقيقة تأرجح خلف ظهره، ثم باب المدرسة والقبلة العجلى والباحة الإسمانية بأشجار كستنائها الداكنة،

وأولى الديسيّلات^١... وقد يكون بعدها انتهي زاوية في الباحة أو دخل مباشرةً في المممعة، ثم تواجد مع زملائه في مقاعدهم القرمة، صامتين وبلا حراك، بينما تحاول كل حركات الجسد أن تطوي الحرفة الوحيدة للقلم وهو يتنقل عبر الدهليز الواطئ السقف الذي يشكّله السطر! لسان ممدود وأصابع متشنجة ومعصم مشدود... جسور صغيرة، عصيّ صغيرة، بكلات، دوائر وجسور صغيرة... إنه الآن على بعد مائة فرسخ من أمه، غارق في هذه العزلة الغريبة التي نسمّيها "الجهد"، محاط بكل هذه العزلات المادة ألسنتها... وها قد بدأت الحروف الأولى تجتمع... أسطر "أ" ... أسطر "م" ... أسطر "ط" ليست سهلة الطاء بكلتها المستلقة وعصاها العمودية، لكنها تبقى سهلة عند الهاء بحلقتيها المزدوجتين أو الكاف وشكليها المختلفين). ومع ذلك يتم تجاوز الصعوبات خطوة خطوة... لدرجة أن الحروف وقد التصقت الواحدة بالأخرى بدأت تشكّل مقاطع... أسطر "ما" ... أسطر "با" ... والمقاطع بدورها بدأت تشكّل... .

باختصار، ذات صباح، أو بعد ظهيرة، بينما مازالت الأذنان تطنّان بضجّة مطعم المدرسة، شهد، أمام عينيه، تفتح الكلمة الصامتة على الورقة البيضاء: ماما.

طبعاً كان قد رأى هذه الكلمة على اللوح وترعرف عليها عدة مرات، لكن هنا، أمام عينيه، مكتوبة بيده هو... وبصوت متعدد في البداية، تلعم بلفظ المقطعين، كل على حدة: "ما - ما".

وفجأة:
- ماما!

صرخة الفرح هذه تشكّل احتفالاً بنهاية أعظم رحلة فكرية يمكن تصورها، رحلة شبيهة بأول خطوة على سطح القمر، رحلة يتم فيها العبور من الرسم الأكثر اعتباطية إلى أكثر المعاني عاطفية! دوائر وجسور صغيرة وعصيّ ...

١. الديسيّل: وحدة لقياس الصوت. هنا، تعبر عن ضجة باحة المدرسة. (م)

و... ماما! صحيح أن الكلمة مكتوبة هنا، أمام ناظريه، لكنها تفتح في داخله!
وهي ليست مجموعة مقاطع، وليس كلمة، ولا مفهوماً، وليس أمّا، بل هي
أمّه هو بالذات، انتقال سحري، أكثر تعبيراً بكثير من كل الصور الفوتografية،
رغم أنها مجرد دوائر وجسور صغيرة... لكنها دوائر وجسور توقفت فجأة
- وإلى الأبد! - عن أن تكون هي ذاتها. كانت لا شيء وتحولت حضوراً،
صوتاً، عطراً، يداً، حضناً، وكل هذه التفاصيل اللانهائية، تحولت إلى كيل
مطلق حميمي جداً، وغريب بشكل مطلق عمّا هو مكتوب هنا، على سكة
الصفحة، بين جدران الصف...

إنه الحجر الفلسفي.

لا أكثر، ولا أقل.

لقد اكتشف لتوه الحجر الفلسفي.

لا يمكن للمرء أن يشفى من هذا التحول، ولا أن يعود سالماً من رحلة كهذه. ومهما كانت "متعة القراءة" مكبونة، فإنها تحكم بكل قراءة. وبسبب من طبيعتها ذاتها فإن متعة القراءة - متعة الكيميائي هذه - لا تخشى على نفسها من الصور، حتى من الصور التلفزيونية بوابلها اليومي. ورغم ذلك، حتى إذا فقدت متعة القراءة (إذا كان، كما يقال عادة، ابني أو ابنتي أو الشبان قد فلّدوا حب القراءة)، فإنها لم تُفقد بعيداً. بالكاد تاهت عن طريقها قليلاً. ومن السهل العثور عليها.

لكن يجب أن نعرف في أي السبل نبحث عنها، ويجب، من أجل ذلك، أن نعرف كيف نعده بعض الحقائق التي لا علاقة لها بتأثيرات العصر الحديث على الشبان. بعض الحقائق التي لا تخص أحداً غيرنا... نحن الذين لا نني نؤكد أننا "نحب القراءة" وننزعم أننا نريد إشراك الآخرين في هذا الحب.

إذاً، يعود الطفل، وهو تحت تأثير الاندهاش، يعود من المدرسة فخوراً بنفسه،
بأنه سعيداً نوعاً ما. ويستعرض لطحات حبره وكأنها أوسمة، بينما تزيّنه بالفخر
شبكات العناكب التي رسمها قلمه الرباعي الألوان.

سعادة مازالت قادرة على التعويض عن أولى آلام الحياة المدرسية: النهارات الطويلة عبثاً ومتطلبات المعلمة وصخب المطعم المدرسي وأولى اختلالات القلب ...

يصل ويفتح حقيقته ويستعرض مقدراته، ويعيد الكلمات المقدّسة من جديد (وإن لم تكن كلمة "ماما" فستكون كلمة "بابا" أو "سّكاكِر" أو "قطّ" أو اسمه هو...).

في مركز المدينة يتتحول إلى بديل لا يتبع عن اللوحات الإعلانية: ري-ن-و، س-ام-اري-ت-ي-ن، ف-ول-ف-ي-ك، ك-ام-ارغ...

وتهوي إليه الكلمات من السماء، وتتفجر مقاطعها الملونة في فمه، ولا

تقاوم أية ماركة منظف غسيل حبه لفك الحرف:
 - "يَنْظُ" - ظِف وَيُبَيِّنُ - يُضَعُ أَكْثَرُ". ما معنى "يَنْظُ" - ظِف وَيُبَيِّنُ - يُضَعُ أَكْثَرُ؟"

هل تركنا هذا الحماس يعمي أعيننا؟ هل اعتقדنا أنه يكفي للطفل أن يتمتع بالكلمات كي يتحكم بالكتب؟ هل ظننا أن تعلم القراءة شيء بديهي كالمشي أو اللغة - أي، بالمحصلة، ميزة أخرى من ميزات الجنس البشري؟ مهما يكن الأمر، فقد اخترنا هذه الفترة كي نوقف قراءات المساء.

المدرسة تعلّمه القراءة، وهو يفعل ذلك بشغف، وهذا منعطف جديد في حياته، اكتفاء ذاتي جديد، نسخة جديدة من خطوهه الأولى في المشي، هنا ما قلناه لأنفسنا، بشكل مبهم، دون أن نصرح بذلك فعلاً بقدر ما كان الأمر يبدو لنا "طبعياً"، مرحلة مثل غيرها على طريق تطور بيولوجي لا عقبات فيه. لقد أصبح الآن "كبيراً"، ويستطيع القراءة بمفرده، والمشي بمفرده على طريق الإشارات اللغوية...

ويستطيع أن يعيد لنا، أخيراً، ربع ساعة حررتنا.

ولم يقم كبرياً وله الحديث العهد بأي شيء لمعارضتنا. كان ينزلق في سريره، وكتاب بباباً مفتوح على ركبتيه، وتحجيدة ترکيز فظيعة بين عينيه: لقد كان "يقرأ". وكنا نغادر غرفته، وقد طمأنتنا صورته الإيمائية هذه، دون أن ندرك - أو دون أن نريد الاعتراف لأنفسنا - أن ما يتعلّمه الطفل أولًا ليس الفعل بذاته بل "صورة الفعل" وأن هذا المظهر الخارجي، حتى لو كان يساعد الطفل على التعلم، إلا أنه موّجه أساساً إلى طمانته وإرضائنا بنفس الوقت.

١ بابا، اسم شخصية قصص أطفال، وهو عبارة عن فيل، ويشكل اسمه دوماً جزءاً من العنوان. (هناك أيضاً رسوم متحركة تحمل نفس الاسم). (م)

ومع ذلك فإننا لم نتحول إلى آباء لا يستحقون هذا الاسم، إذ أننا لم نهمله في المدرسة. بالعكس فقد تابعنا عن قرب تقدمه فيها. وقد عرفت فيما معلمه آباء مهتمين وحاضرين في كل المجتمعات و”منفتحين للحوار“.

لقد قمنا بمساعدة هذا المتعلم على كتابة وظائفه. وعندما ظهرت لديه أولى علامات التعب فيما يخص القراءة، ألححنا وبشجاعة كي يقرأ، بصوت عالٍ، صفحاته اليومية ويفهم فحواها. ولم يكن الأمر دائماً سهلاً. آلام مخاض مع كل مقطع.

معنى الكلمة يضيع في الجهد المبذول لتركيبيها. معنى الجملة يتضمن في عدد الكلمات المكونة لها. العودة إلى الوراء.

والبدء من جديد.
بدون أن تتعب.

– ها؟ ما هذا الذي قرأته هنا؟ ما ”معناه“؟

وكان ذلك يتم في أسوأ لحظات النهار. إما عند عودته من المدرسة، أو لدى عودتنا من العمل. إما وهو في قمة تعبه، أو ونحن في الدرك الأسفل من قوانا. – إنك لا تبذل أدنى جهدا!

نرفة، صياح، تخل عن الأمر بكل بساطة، أبواب تصفق، أو بالعكس عناد: – سنكرر كل شيء، سنكرر كل شيء من البداية!
وكان يكرر، من البداية، بينما يشوه اضطراب شفتيه كل كلمة.

- توقف عن التمثيل!

ولم يكن وجعلنا ذاك محاولة لخداع أنفسنا. بل كان وجعاً حقيقياً، لا تحكم به، وجع يعكس بالفعل عدم قدرتنا على التحكم بكل شيء. وقد كان هذا الألم يتغذى من نوع قلقنا أكثر مما يتغذى من مظاهر قلة صبرنا. فقد كنا فعلاً قلقين.

وقد دفعنا هذا القلق بشكل مبكر إلى مقارنته مع أطفال من عمره. وإلى الاستفسار من أصدقائنا الفلسطينيين عن ابتهم، التي، بالعكس، كانت "ماشية تماماً" في المدرسة وتلتهم الكتب التهامة. أهو مصاب بالصمم؟ أو ربما بمرض عسر القراءة؟ هل سيقوم بـ"رفض المدرسة"، بحيث يصبح عنده تراجع لا يمكن إصلاحه؟ استشارات مختلفة: فحص حاسة السمع كان سليماً تماماً، وتشخيص مطمئن تماماً من ناحية الأطباء المختصين بالنطق، وطمأنة تامة من جهة المختصين بعلم النفس...
ماذا إذا؟

أهو كسول؟

بكل بساطة كسول؟

لا، لقد كان يتقدم وفق إيقاعه هو، هذا كل شيء، وهو ليس بالضرورة إيقاع طفل آخر، ولا الإيقاع الواحد لحياة ما، إنه إيقاعه كقارئ مبتدئ، وهو إيقاع يعرف أحياناً تسارعات وتراجعات فجائية، وفترات منهم وكذلك فترات قليلة هضمية، ويعرف أيضاً عطشه للتقدم وخوفه من تخيب الآمال فيه...
لكتنا نحن الآخرين، "الربيانين"، مُفرضون مستعجلون على تحصيل الفائدة. بما أننا نملك "العلم"، فإننا نفرضه مقابل فائدة. يجب أن يكون هناك مردود، وبسرعة! وإنما نبدأ بالشك في أنفسنا نحن.

إن كان، كما نقول عادةً، ابني أو ابنتي أو الشبان لا يحبون القراءة (و فعل أحب هنا دقيق تماماً لأن المسألة هي فعلاً مسألة جرح حب)، لا يجب أن نضع ذلك على عاتق التلفاز أو الحدائق أو المدرسة. يمكن أن نتهم كل هؤلاء إذا أردنا لكن بعد أن نطرح على أنفسنا السؤال الأساسي التالي: ما الذي فعلناه بالقارئ “المثالي” الذي كانه في ذلك الزمن الذي كنا نلعب فيه بأنفسنا دور الحكواتي ودور الكتاب بنفس الوقت؟ ما أعظمها من خيانة!

كنا نشكل، نحن والقصة وهو، ثالوثاً مقدساً تصالح أقانيمه كل مساء؛وها هو الآن وحيد أمام كتاب عدائي.

كانت خفة جملنا تحرّرها من كل ثقل؛ بينما التراحم المبهم للحروف الآن يختنق حتى محاولاته في أن يحمل.

كنا قد علمناه الرحيل عمودياً؛وها هو يسحقه خدر المجهود.

زوّدناه بخاصية التواجد في كل مكان؛وها هو سجين في غرفته، في صفه، في كتابه، في سطر، في كلمة.

أين تختفي إذاً كل تلك الشخصيات السحرية، أولئك الأخوة والأخوات والملوك والملكات والأبطال، التي طالما لاحقتها الأشرار، والتي كانت تخفّف عنه عناء الوجود بدعوتها له لنجدتها؟ فمن الممكن أن تكون لها علاقة بآثار الخبر هذه، المسحوبة بشدة والتي نسميها “حروف”؟ فمن الممكن أن يكون أنصاف الآلهة هؤلاء قد تُنفّوا إلى هذا الحدّ وفُرموا إلى درجة أن يصبحوا مجرد حروف مط比عة؟ وأن يتحول الكتاب إلى مجرد “شيء”؟ إنه تحول مضحك! الوجه

المكشوف للسر. هو وأبطاله وقد خنقتهم معاً السماكة الصامتة للكتاب! وليس بالتحول البسيط كذلك هذا الإصرار الشديد من قبل الأب والأم اللذين يريدان، كالمعلمة، دفعه إلى إفلات حلمه الذي كان يتمسك به.

– قل إذاً، ما الذي حصل للأمير، آ؟ إنني أنتظر الجواب!

هذا الأبوان اللذان لم يكونا يهتمان أبداً، أبداً، عندما كانوا يقرأن له كتاباً، بمعرفة إن كان قد ”فهم“ جيداً أن الأميرة كانت نائمة في الغابة لأن المغزل وخرزها، وأن ”بياض الثلج“ كانت نائمة لأنها أكلت من التفاحه. (في المرات الأولى، في الحقيقة، لم يكن قد ”فهم“ فعلاً. فقد كان هناك قدر كبير من الأعاجيب في هذه القصص، وقدر كبير من الكلمات الجميلة والإثارة العاطفية! كان يركز كل انتباذه في انتظار مقطوعه المفضل، والذي كان يرددده في داخله غيّراً في اللحظة المناسبة. ثم كانت تأتي المقاطع الأخرى، الأكثر غموضاً، والتي كانت تنجذب فيها كل الأسرار، لكنه، شيئاً فشيئاً، كان يفهم كل شيء، كل شيء تماماً، وكان يعرف تماماً أن الأميرة الجميلة كانت نائمة بسبب المغزل و ”بياض الثلج“ بسبب التفاحه...).

– أكرر سؤالي: ما الذي حدث لهذا الأمير عندما طرده أبوه من القصر؟ ثم نلحّ ونلحّ. يا إلهي، من غير المعقول أن هذا الصبي لم يفهم فحوى هذه الأسطر الخمسة عشر! ليس الأمر بهذه الصعوبة، خمسة عشر سطراً! كنا حكواتيه وصرنا محاسبيه.

– بما أن الأمر كذلك، فلن تشاهد التلفاز اليوم!

إي نعم...
نعم... التلفاز ترقى وأصبح مكافأة... وبالنتيجة خسفت القراءة لتصبح وكأنها عمل شاق... نحن من عشر على هذه اللقية...

”القراءة مصيبة الطفولة والشيء الوحيد تقريباً الذي نعرف أن نشغل الطفل فيه. (...) والطفل لا يحاول إتقان الأداة التي نعذبه بها؛ لكنّ ضعوا هذه الأداة في خدمة هوایاته وسترون كيف سيدلّ مجھوداً كبيراً رغمَ عنكم. نهتم كثيراً بالبحث عن أفضل الطرق لتعلم القراءة، ونخترع مكاتب، وخرائط، ونحوّل غرفة الطفل إلى ورشة طباعة (...). كم هذا مثير للشفقة! إذ أن هناك وسيلة أنجع من كل هذا، وغالباً ما ننساها، وهي الرغبة في التعلم. امنحوا الطفل هذه الرغبة وتخلوا آنذاك عن مكاتبكم (...); مهما كان منهج التعليم المتبعة عندها فسوف يناسبه. الاهتمام الحاضر، المباشر؛ هذا هو المحرك الكبير والوحيد القادر على دفعه بعيداً وبشكل مؤكّد. (...)

وأضيف هذه العبارة على شكل حكمة مهمة: عادةً نحصل بشكل مؤكّد أكثر، وبسرعة أكبر، على ما نريد إن لم نكن مستعجلين في الحصول عليه”. طيب، طيب، لا يحق لرسو أن يدلّي برأيه هنا، وهو الذي ألقى بأطفاله مع مياه جرن الحمام! (يا لللأزمة الغبية...).

لكن مع ذلك فإن ما يقوله هنا يأتي في محله ليذكرنا بأنّ هوس البالغين بـ ”معرفة القراءة“ ليس حديث العهد... ولا غباء الاختراعات التربوية التي تعارض الرغبة في التعلم.

١ هذا الاستشهاد استقاه الكاتب من كتاب الاعترافات لجان جاك روسو. (م)

ثم (آه إنني أسمع قهقهة ملاك التناقض) قد يحدث أن يمتلك أب سيء مبادئ تعليمية ممتازة وأن يمتلك تربوي جيد مبادئ سيئة. هكذا هي الأمور. لكن، إن كان روسو مثالاً غير مقبول، مما قولكم ببول فاليري - الذي لم يتخاصم مع جمعية رعاية الطفولة - عندما قام، خلال خطاب من أكثر الخطابات تربوية وأكثرها احتراماً للمؤسسة المدرسية (خطاب القاه أمام فتيات "وسام الشرف" الرصين جداً)، بالانتقال فجأة إلى خلاصة ما يمكن أن يقال عن الحب، حب الكتاب:

أيتها الآنسات، لا يبدأ الأدب بسحرنا من خلال المفردات وال نحو. تذكّرن فقط كيف تدخل الآداب في حياتنا. ففي أولى سنين عمرنا، ما إن توقف الأغاني التي تجعل الرضيع يتسم ويتنام حتى يبدأ عصر الحكايات التي يشربها الطفل كما كان يشرب حلبيه. فيطلب البقية وتكرار الأعاجيب؛ إنه جمهور ممتاز وبدون رحمة. ولا يعلم إلا الله كم من الساعات أمضيت وأنا أُسقي سحرة ووحشاً وقراصنة وجنيات لأطفال صغار كانوا يصرخون "أيضاً!" لأبيهم الذي هذه التعب.

”إنه جمهور ممتاز وبدون رحمة“.

إنه، منذ البداية، قارئ جيد، ويمكن أن يبقى كذلك لو أن الكبار المحيطين به يقومون بتغذية حماسه بدلاً من أن يحاولوا أن يرهنوا أنفسهم عن مهاراتهم، ولو أنهم يحرّضون رغبته في التعلم قبل أن يطلبوا منه أن ”يسمع“ لهم، لو أنهم يرافقونه في جهده بدلاً من الاكتفاء بانتظاره عند المنعطف، لو أنهم يقبلون بالضحية بسهرات بدل أن يحاولوا كسب الوقت، لو أنهم يجعلون الحاضر يمور بالحياة دون التهديد بالمستقبل، لو أنهم يرفضون أن يحوّلوا ما كان متعة إلى أشغال شاقة، ولو أنهم ينّمون هذه المتعة حتى تصبح واجباً، وأن يؤسّسوا هذا الواجب على مجانية التعلم الثقافي، ويستعيدوا بذاتهم متعة هذه المجانية.

وها هي هذه المتعة قرية جداً، ومن السهل استعادتها. يكفي ألا تترك السنين
تمر. يكفي أن ننتظر هبوط الظلام، وأن نفتح من جديد باب غرفته، ونجلس
قرب رأسه ونستعيد قراءتنا المشتركة.
وأن نقرأ

بصوت عالٍ
وبدون مقابل
قصصه المفضلة.

ما سيحصل حينئذ يستحق الوصف. ففي البداية لن يصدق أذنيه، فالقط
محروم يخشى الحكايات!^١ ويُصاب بالذعر قليلاً وهو تحت لحافه الذي
يصل إلى ذقنه، إذ أنه يتنتظر الفخ المنصوب له:
- طيب، ما معنى ما قرأت لك؟ هل فهمت؟

لكتنا لن نطرح عليه كل هذه الأسئلة، ولا أية أسئلة أخرى. سنكتفي بالقراءة.
مجاناً. وسيرتخي قليلاً قليلاً (ونحن أيضاً)، وسيستعيد ببطء هذا التركيز الحال
الذي كان يبدو على وجهه مساءً. وسيتعرف علينا، أخيراً، من صوتنا الذي
عاد إلى طبيعته الأولى.

من المحتمل، تحت تأثير الصدمة، أن ينام منذ الدقائق الأولى... إنه
الارتياح.

وفي مساء اليوم التالي، نفس اللقاء. ومن المحتمل أن تكون نفس القراءة.

^١ يحرف الكاتب هنا المثل الفرنسي القائل: «القط المحروم يخاف الماء الفاتر». (م)

نعم، من المحتمل جداً أن يطالبنا بأن نقرأ له القصة ذاتها، فقط ليتأكد من أنه لم يحلم بالأمس، وأن يطرح علينا الأسئلة ذاتها، وفي نفس الأمكانة، فقط ليسعد بسماعنا ونحن نعطيه الأجرة ذاتها. فالتفكير طمأنينة. إنه دليل على الحميمية. بل إنه نفسُ الحميمية. وهو بحاجة لاستعادة هذا النَّفَس: – أيضاً!

”أيضاً، أيضاً...“ تعني، باختصار، ”لا بد وأننا، أنا وأنت، نحب بعضنا حتى نرضى بهذه القصة الوحيدة، والتي تتكرر حتى اللاتهابية!“. إعادة القراءة ليست تكراراً، إنها البرهنة المتتجددة دوماً عن حبٍ لا يمل. إذن، فلنعد القراءة.

يومه صار وراءه. ونحن هنا، أخيراً معاً، أخيراً في عالم آخر. لقد استعاد سرّ الثالوث: نحن والنص وهو (بأي ترتيب شتتمن لأن السعادة تأتي من عدم إمكانية ترتيب عناصر هذه اللحمة!).

إلى أن يمنح لنفسه المتعة النهائية للقارئ، وهي أن يملّ من النص ويطلب منا أن ننتقل لغيره.

كم سهرة أضينا بها الشكل لفتح أبواب الخيال؟ عدة سهرات فقط، لا أكثر من ذلك. ولنقل عدة سهرات أخرى. لكن الأمر يستحق العناء. فها هو من جديد مفتوح على كل القصص الممكنة.

وبنفس الوقت تتابع المدرسة تعليمها. وإن كان مازال لا يُظهر تقدماً في ثباته قراءاته المدرسية، فعلينا ألا نخاف، إذ أن الزمن أصبح معنا منذ تخلينا عن فكرة إكسابه الوقت.

وسيظهر التقدم (”التقدم“ الشهير) في مكان آخر، وفي لحظة لم نكن ننتظرها.

وذات مساء قادم، سنسمعه يهتف لأننا تجاوزنا سطراً:

– لقد قفزت عن سطر!

– عفواً؟

– نسيت سطراً، لقد تجاوزت سطراً!

– لا، أوْكَد لك...

- هات!

وسيأخذ الكتاب من بين يدينا ويشير، بإصبع متصر، إلى السطر الذي تجاوزناه. ” وسيقرأه بصوت عالٍ .
وستكون تلك الإشارة الأولى .

وستأتي الإشارات الأخرى لاحقاً . وسيعاد على مقاطعة قراءتنا:
- كيف نكتب ذلك؟

- ماذا؟

- ما قبل التاريخ.

- م، ا - ق، ب، ل ...

- أرني!

يجب ألا نفتر . فهذا الفضول الفجائي آت طبعاً من موهبته الحديثة العهد ككيميائي ، لكنه آت قبل كل شيء من رغبته في إطالة السهرة .
(فلنطل ، فلنطل ...)

وذات مساء آخر ، سيقرر:

- سأقرأ معك!

وسيمدّ رأسه من فوق كتفنا ويتابع بعينيه بعض الوقت الأسطر التي نقرأها
له.

أو أنه سيقول:

- أنا من يبدأ!

وسينطلق هاجماً على المقطع الأول .

وستكون قراءته صعبة ، ليكن! وبسرعة لاهثة ، ليكن! إذ أنه بالرغم من ذلك
سيكون قد استعاد ثقته ، فهو يقرأ بدون خوف . وسيقرأ بشكل أفضل فأفضل ،
وبرغبة تتنامي شيئاً فشيئاً .

- هذا المساء ، أنا من سيقرأ!

وسيقرأ نفس المقطع طبعاً - إنها فضيلة التكرار - ثم آخر ، ”مقطعه
المفضل“ ، ثم نصوصاً بكمالها . نصوص يعرفها تقرباً عن ظهر قلب ، ويختمنها
كونه يعرفها أكثر مما يقرأها ، ولكنه رغم ذلك يقرأها من أجل متعة تخمينها .

ولن يتأخر اليوم الذي سنفاجئه فيه، في ساعة ما من ساعات النهار، وقد وضع على ركتبه حكايا القطب الجنائ، وبدأ يرسم مع دلفين وماري^١ حيوانات المزرعة. منذ عدة أشهر سرّ كثيراً بالتعرف على كلمة "ماما"؛ والآن تنبثق قصة بأكملها خلل مطر الكلمات. لقد أصبح بطل قراءاته، ذاك البطل الذي فوّضه الكاتب، منذ الأزل، كي يأتي ويفك أسر الشخصيات الحبيسة في نسيج النص – لكي تحرره بدورها من حوادث النهار.

ها قد بلغنا المراد.

وإن كنا نريد أن نمنحه متعة أخيرة، يكفي أن ننام وهو يقرأ لنا.

١ شخصيات في الكتاب المذكور. (م)

من المستحيل أبداً أن تفهم ولداً غارقاً مساءً في خضم قصة آسرة، أن تفهمه بحجج تعلق به وحده بأن عليه أن يقطع قراءته ويدهب إلى النوم.

كافكا هو الذي يقول هذا الكلام، فرانز الصغير، الذي كان أبوه يفضل لو أنه قضى ليالي حياته بأكمالها في الحسابات.

الفصل الثاني

يجب أن تقرأ
(عقيدة لا تُناقش)

تبقى مشكلة الكبير، الجالس الآن في غرفته، في الطابق العلوي.
هو أيضاً بحاجة لأن يتصالح مع "الكتب"!
المنزل فارغ، الأبوان نائمان، والتلفاز مطفأ، وهاهو إذاً بمفرده... أمام
الصفحة ٤٨.

وهذا "الملخص" الذي عليه أن يقدمه غداً...
حساب عقلي بسيط:
 $48 - 398 = 446$.

ثلاثمائة وثمان وتسعون صفحة يجب قراءتها خلال الليل!
بسجاعة يعود إلى قراءته. صفحة تدفع الأخرى. كلمات "الكتاب" ترقص
في سماعتي جهاز التسجيل الموسيقي الموضوعة على أذنيه. بدون فرح.
للكلمات أقدام ثقيلة كالرصاص. تساقط الواحدة تلو الأخرى كالاحصنة التي
نطلق عليها طلقة الرحمة. حتى عزف الإيقاع الصاخب عجز عن إعادة الحياة
إليها (رغم أن عازف الإيقاع هو كندال الشهير). يتبع قراءته دون أن يلتفت
خلفه إلى جثث الكلمات. لقد أسللت الكلمات معانيها، فلترقد حروفها في
سلام. هذا الموت الجماعي لا يخيفه. وهو يقرأ قُدماً كما نمشي. الواجب
يدفعه إلى ذلك. الصفحة ٦٢، الصفحة ٦٣.

يقرأ.

ماذا يقرأ؟

قصة إيماناً بوفاري.

قصة فناة قرأت الكثير من الكتب:

كانت قد قرأت رواية بول فيرجيني وحلمت بالكونج المصنوع من القصب، وبالزنجي دومانغو، وبالكلب ”مخلص“، وحلمت خاصةً بالصدقة العذبة لأنّ صغير يصعد إلى أشجار أعلى من أبراج الكنائس ليقطف لها فواكه حمراء، أو يركض عاري القدمين على الرمال ليحضر لها عش عصفور.

من الأفضل الاتصال بتيري أو بستيفاني كي يعطيها ملخصهما غالباً صباحاً، وسينقله بسرعة قبل بداية الدرس، و”لا عين رأت ولا أذن سمعت“. إنهم يدينان له بذلك.

”عندما صار عمرها ثلاثة عشرة سنة، أخذها أبوها معه إلى المدينة ليضعها في الدير. باتا يومها في نزل في حي سان جيرفي وكانت رسوم الصحون التي قدمت لها على العشاء تمثل قصة الآنسة دو لافالير. وكانت الشروحتات المرافقية للرسوم - والتي جرحتها السكاكيين في مواضع عدّة - تمتداح الدين ورهافة الأحساس وأبهة البلاط الملكي.“.

عبارة: ”كانت رسوم الصحون التي قدمت لها على العشاء...“ جعلته بالرغم عنه يتسم ابتسامة متّعة: ”أعطيت لها صحون فارغة ليأكلها؟ أطعمها قصة هذه الآنسة دو لافالير؟“.

هه! إنه يسخر! يعتقد نفسه على هامش القراءة. خطأ، إذ أن سخريته في محلها تماماً. لأن مصائبهما المتاظرة (هو وإيماناً بوفاري) تعود إلى الأمر التالي: إيماناً بـ”نظر إلى صحنها“ ككتاب، بينما هو ينظر إلى كتابه كصحن.

”في هذا الوقت، في الثانوية“ (كما كانت تقول المجلات المصورة البلجيكية لجيлем) كان الوالدان يديران حديثاً مع أستاذ اللغة الفرنسية: - يا أستاذ، ابني... ابنتي... والكتب...

فهم أستاذ الفرنسيسة المغزى: الطالب المقصود ”لا يحب القراءة“.

- ومما يزيد الأمر إدهاشاً أنه، عندما كان طفلاً، كان يقرأ كثيراً... حتى أنه كان يلتهم الكتب التهاماً، أليس كذلك يا عزيزتي، ألا يسعنا القول إنه كان يلتهم الكتب التهاماً؟

توافق عزيزته: كان يلتهمها.

- لكننا منعناه من مشاهدة التلفاز!

(هذه حالة أخرى: المنع المطلق من مشاهدة التلفاز. حل المشكلة برفض الكلام عنها. وهي بدعة أخرى من بدع التربية!).

- صحيح، التلفزيون ممنوع خلال السنة الدراسية. إنه مبدأ لم نتساهم فيه أبداً!

لافاز! لكن بيانو من الساعة الخامسة إلى السادسة، غيتار من السادسة إلى السابعة، رقص يوم الأربعاء، جيدو، تنس، مبارزة، يوم السبت، تزلج على الثلج منذ أول هطولاته، دورة قوارب شراعية منذ بدايات تحسن الطقس، دروس في صناعة الفخار في الأيام الماطرة، رحلة إلى إنكلترا، جمباز إيقاعي...

وهكذا تُمحى أقل فرصة معطاة لأصغر ربع ساعة يمكن للمرء أن يجلس فيها بينه وبين نفسه.

اهجموا على الحلم!

العنوا المللي

الملل الجميل...

الملل الطويل...

الذي يجعل كل إبداع ممكناً...

- نحاول أن لا نتركه يملأ أبداً.

(يا له من مسكنين...)

- إننا... كيف يمكن أن أعتبر عن ذلك؟... إننا متيقظون جيداً إلى ضرورة

إعطائه تعليمياً كاملاً لا ينقصه شيء...

- ناجعاً خاصةً، يا عزيزتي، بإعطاؤه برأيي تعليمياً ناجعاً.

- لو لم يكن الأمر كذلك لما كنا هنا الآن.

- لحسن الحظ، علاماته بالرياضيات ليست بالسيئة...

- أما بالفرنسية، فطبعاً...

كم هو تعيس وحزين ومؤثر هذا الجهد الذي نفرضه على كرامتنا عندما نذهب هكذا، كبرجوازبي كالى^١، حاملين مفاتيح فشلنا بأيدينا الممدودة، لمقابلة أستاذ اللغة الفرنسية. والأستاذ يصغي ويقول: نعم... نعم، وهو يتمنى أن يكون مخططاً ولو لمرة واحدة في حياته كمدرس، أن يكون مخططاً ولو قليلاً جداً... لكن لا:

- برأيك هل يمكن أن يكون إخفاقه في اللغة الفرنسية سبباً لإعادة السنة؟

١ إشارة إلى حكاية تاريخية خاصة بمدينة كالى شمال فرنسا، حكاية تعود إلى القرن الرابع عشر خلال ما سمي "حرب المائة عام" بين إنكلترا وفرنسا. تنص الحكاية على أن ملك إنكلترا إدوار الثالث، الذي حاص المدينة لمدة ١١ شهراً، قبل أن يمنع الأماكن لسكان المدينة التي بدأت تعيش مجاعة كبيرة، مقابل أن تسلّم له المدينة ستة من برجوازيها ليقتلهم. جاءه البرجوازيون الستة والhalb في أعقابهم وهم يحملون مفاتيح المدينة وقصرها ليقدموها له. يقول النصوص إن ذلك لم يمنع الناس من الفرار من المدينة بعد أن دخلها الجنود الإنكليز، وأن الملك أغفى بطلب من زوجته عن هؤلاء الرجال الستة.

قام النحات الفرنسي الشهير أوغست رودان بعمل تمثيل لهؤلاء البرجوازيين بطلب من مدينة كالى، في نهاية القرن التاسع عشر. (م)

هكذا تمضي حيواتنا: هو يقضيها في “الاتّجار” بملخصات القراءة، ونحن في مواجهة شبح الرسوب، وأستاذ الفرنسيّة في شعوره بأن مادته مهانة...
وليحيى الكتاب!

المدرّس يتحول بسرعة إلى مدرّس عجوز، ليس لأن هذه المهنة تستهلك المرأة أكثر من غيرها، لا... بل بسبب سماع كم هائل من الآباء يحدّثونه عن كم هائل من الأولاد - وعن أنفسهم بنفس الوقت - وسماع عدد كبير من قصص حياة، وطلاق، ومشاكل عائلية: أمراض الطفولة، مراهقين من الصعب السيطرة عليهم، بنات عزيزات لكن عاطفتهن تفلت من يديك، رسوبات كثيرة يُبكي عليها، ونجاحات كثيرة مشهورة، وأراء كثيرة حول مواضع لا حصر لها، وخاصة حول ضرورة القراءة، الضرورة المطلقة للقراءة والتي تحظى بإجماع الكل.

يا للعقيدة الجامدة!

هناك الذين لم يقرأوا أبداً ويخرجلون من ذلك، والذين ليس لديهم الوقت للقراءة ويأسفون على ذلك، والذين لا يقرأون روايات بل كتاباً "مفيدة"، ومقالات وكتب تقنية وسير ذاتية وكتب تاريخ، وهناك الذين يقرأون كل شيء وأي شيء، والذين "يلتهمون" وتلمع عيونهم، وهناك الذين لا يقرأون إلا الكلاسيكيين "لأنه ليس هناك ناقد أفضل من غريال الزمان"، هناك من يقضون فترة نضجهم في "إعادة القراءة"، والذين قرأوا آخر كتاب لفلان وآخر كتاب لفلان الثاني لأنه يجب، يا أستاذ، أن نقى على تواصل مع المستجدات... لكنهم جمياً، جميعاً، يفعلون ذلك باسم ضرورة القراءة.

يا للعقيدة الجامدة!

وحتى ذلك الذي لم يعد يقرأ اليوم لكنه يؤكّد أنه لا يقرأ لأنّه قرأ كثيراً في السابق. لكن الآن دراسته صارت خلفه، وقد "نجح" في حياته، بفضل

مجهوده طبعاً (فهو من هؤلاء الذين ”لا يدينون بشيء لأحد“)، ومع ذلك فهو يعترف عن طيب خاطر بأن هذه الكتب، التي لم يعد بحاجة إليها، ساعدته كثيراً... بل كانت ”ضرورية، نعم، ضرورة.. ية!“.

- ويجب أن يضع ”هذا الولد“ ذلك في رأسه!

يا للعقيدة الجامدة!

في الحقيقة، ”الولد“ وضع ”ذلك“ في رأسه. فهو لا يضع هذه العقيدة ولو للحظة واحدة موضع تساوٍ. هذا على الأقل ما يبدو واضحاً في موضوع إنشائه:

موضوع: ما رأيكم بهذه الوصية التي يقدمها غوستاف
فلوبير لصديقه لويس كولي: ”اقرئي لتحي!؟“

الولد يتفق مع فلوبير، الولد وزملاؤه وزميلاته كلهم متفقون مع فلوبير: ”فلوبير كان على حق!“ إجماع خمسة وثلاثين موضوعاً: القراءة واجبة، يجب أن نقرأ لنحيا، وحتى أن هذا الأمر (الضرورة المطلقة للقراءة) هو ما يميّزنا عن الحيوانات، عن البربر، عن الشخص الغشيم الجاهل، عن المتعصب الهستيري، عن الديكتاتور المتحكّم، عن المادي النهم. يجب أن نقرأ! يجب أن نقرأ!

- كي نتعلم.
- كي ننجح في دراستنا.
- كي نعلم ما يجري في العالم.
- كي نعلم من أين جتنا.
- كي نعلم من نحن.
- كي نعرف الآخرين بشكل أفضل.
- كي نعلم إلى أين نمضي.

- كي نحافظ على ذاكرة الماضي.
- كي نضيء الحاضر.
- كي تستفيد من الخبرات السابقة.
- كي لا نكرر أخطاء من سبقونا.
- كي نكسب الوقت.
- كي نفرّ من الواقع.
- كي نبحث عن معنى للحياة.
- كي نفهم أسس حضارتنا.
- كي تُبقي فضولنا متيقظاً.
- كي نتسلّى.
- كي نتواصل.
- كي نمارس فكرنا النقدي.

والأستاذ يوافق على ذلك في هامش الأوراق: ”نعم، صحيح، ج، ج، ج^١، تماماً، فكرة مهمة، بالضبط، دقيق تماماً“، ويلجم نفسه كي لا يهتف: ”أيضاً! أيضاً!“ هو الذي رأى ”الولد“ هذا الصباح، في ممر الثانوية، ينقل بسرعة كبيرة ملخص قراءته من ملخص ستيفاني، هو الذي يعرف، عن تجربة، أن أغلب الاستشهادات التي يقرأها في هذه الكتابات العاقلة منقوله من قاموس ملائم، هو الذي يفهم من النظرة الأولى أن الأمثلة المختارة (”أعطوا أمثلة مأخوذه من تجربتكم الشخصية“) مقتبسة من قراءات قام بها آخرون، هو الذي مازالت أذناته تطنّ من صرخات الاحتجاج التي سبّبها عندما فرض عليهم قراءة الرواية القادمة:

- ماذا؟ أربعمائة صفحة في خمسة عشر يوماً! لن نستطيع ذلك أبداً يا أستاذ!

– عندنا فحص رياضيات!

– وموضوع الاقتصاد الذي يجب أن نسلّمه الأسبوع القادم!

١ ج = جيد، ح ج = جيد جداً، اختصارات يضعها الأستاذة على أوراق الامتحان. (م)

ورغم أنه يعرف الدور الذي لعبه التلفزيون في مراهقة ماتيو وليلي وبريجيت وكامل وسيدريك، إلا أن الأستاذ يوافق من جديد، بحجة قوية من قلم تصحيحه الأحمر، عندما يؤكد سيدريك وكامل وبريجيت وليلي ماتيو أن التلفاز هو “العدو الأول” للكتاب - وحتى السينما - لأن التلفاز والسينما يفترضان السلبية الأكثر حيادية، بينما تشكل القراءة فعلاً مسؤولاً (ج ج !)

رغم ذلك، فإن الأستاذ، عند هذا الحد، يضع قلمه ويرفع رأسه كطالب يحلم، ويتساءل - من أجله هو فقط - إن لم تكن بعض الأفلام، رغم كل شيء، قد تركت في ذهنه ذكريات ذكريات الكتب.

كم من مرة أعاد “قراءة” ليلة الصياد، أماركور، ماناتان، غرفة مع إطلالة، وليمة بابت، فاني وألكسندر^١ لقد كانت هذه الصور تبدو له حاملة لسر الإشارات. طبعاً، ليس هذا الكلام بكلام مختص - فهو لا يفقه شيئاً في نحو التصوير السينمائي ولا يفهم معجم هواة السينما -، إنه مجرد كلام عينيه. لكن عينيه تقولان له بوضوح إن هناك صوراً لا يستهلك المرء معناها وإن ترجمتها تثير كل مرة مشاعر وأحاسيس جديدة، ومن ضمن هذه الصور صور تلفزيونية، نعم: وجه الأب العجوز باشلار، فيما مضى، في “قراءات للجميع”，... وخصلة جانكيليفيتش في “نداءات”... والهدف الذي سجله المهاجم ببابان ضد فريق ميلانو برلسكوني ...

لكن الساعة تدور. يعود الأستاذ إلى تصحيح أوراقه. (من سيتكلم ذات يوم عن عزلة المصحح؟). بعد عدة أوراق، بدأت الكلمات تتفز أمام عينيه، والحجج بدأ تميل إلى التكرار. بدأ ينرفز. إن الطلاب يرددون على مسمعه محتوى كتاب صلوات: على المرء أن يقرأ، على

١ عناوين أفلام سينمائية. (م)

٢ أسماء برامح تلفزيونية. (م)

المرء أن يقرأ! السلسلة الطويلة المملة من نصائح التربويين: يجب أن تقرأوا... في الوقت الذي تدل فيه كل جملة من جملهم على أنهم لا يقرأون أبداً.

- لماذا أنت متزوج إلى هذا الحد يا عزيزي؟ طلابكم يكتبون ما تنتظرون منهم!

- وماذا تنتظر منهم؟

- أن القراءة واجبة! العقيدة! هل كنت تأمل فعلاً أن يكون هناك عدة مواضيع يُطْرِي فيها الطلاب على حرق الكتب؟

- ما أنتظره أنا منهم هو أن يتذمروا سَمَاعات مسجّلاتهم ويدأوا بالقراءة بشكل جدياً!

- أبداً... ما تنتظره أنت منهم هو أن يعطوك ملخصات قراءة جيدة للروايات التي “تفرضها عليهم”，أن “يشرحاً” بشكل صحيح القصائد التي “اخترتها أنت لهم”， وأن يحللوا، يوم الامتحان، وبشكل دقيق، نصوص “لائحتك أنت”， وأن “يفسروا” بحكمة أو “يلخصوا” بذكاء ما سيضعه الممتحن أمام أنظارهم في ذلك الصباح... لكن لا الممتحن ولا أنت ولا الأهالي، لا أحد منكم يريد بشكل خاص أن يقرأ هؤلاء الأطفال. لاحظ أنهم، هم أيضاً، لا يتمتعون العكس. إنهم يتمتعون النجاح في دراستهم، وهذا كل شيء! وبالنسبة لما تبقى، فإن لهم مشاغل أخرى أهم. وعلى فكرة، فلو بير أيضاً كانت لديه مشاغل أخرى! فإن كان ينصح لوبيز بقراءة الكتب، فإن ذلك كان فقط من أجل أن تتركه بسلام، أن تدعه يعمل على راحتة في كتابة مدام بوفاري، وأن لا تحبل من وراء ظهره. هذه هي الحقيقة، وأنت تعرفها جيداً.

. عبارة ”اقرئي لتحبّي！“، بقلم فلوبيـر عندما كان يكتب للويـز، معناها الجليـ

هو: ”اقرئي كي تركيني، أنا، أحيا“ . فهل شرحت ذلك لطلابك؟ لا؟ لماذا؟
تبتسم وتضع يدها على يده:
– يجب أن تقبل بذلك يا عزيزى: ”فعبادة الكتاب جزء من الشعائر المتناقلة
شفوياً“ ، وأنت كاهنها الكبير.

”لم أجد أي محاضر كان في الدروس التي تعطيها المدارس. حتى لو كانت المادة التعليمية أكثر غنى وأهمية مما كانت عليه في الواقع، فإن التحدث الكثيف لأساتذة منطقة بافياير^١ كان قادرًا على جعلني أقرن من أكثر المواضيع أهمية“.

”كل ما أملك من ثقافة أدبية، حصلت عليه خارج المدرسة“... ”وتحتلط أصوات الشعراء في ذاكرتي مع أصوات أولئك الذين عرفوني بهؤلاء الشعراء لأول مرة: هناك بعض آثار المدرسة الرومانسية الألمانية التي لا يمكنني أن أعيد قراءتها دون أن أسترجع صوت ميلين بنبرته المتأثرة ورتنه المرحية. وقد اعتادت ميلين أن تقرأ لنا طوال الوقت الذي كنا فيه صغاريًا“.

(...)

”ومع ذلك فقد كنا نصغي بخشوع أكبر لصوت ‘الساحر’ الهادئ... وكان كتابه المفضلون من الروس. كان يقرأ لنا القوازق لتولستوي والأمثال الطفولية جداً، وذات الفحوى التربوي البسيط جداً، التي كتبها في مرحلته الأخيرة... - كنا نصغي إلى قصص غوغول وحتى إلى عمل من أعمال دوستويفسكي - أقصد ذلك العمل الهزلاني المقلق الذي يحمل عنوان: قصة أليمة.“

(...)

”ليس هناك أدنى شك من أن الساعات المسائية الجميلة التي كنا نقضيها

١ منطقة في جنوب ألمانيا. (م)

في مكتب والدنا لم تكن تحرّض مخيّلتنا فحسب، بل وفضولنا أيضاً. فما إن يتذوق المرء لمرة واحدة السحر الجذاب للأدب العظيم والراحة التي يمنحها حتى يحاول أن يتعرّف دوماً على أعمال عظيمة أخرى – على ‘قصص مضحكة’ أخرى، وأمثال مليئة بالحكمة، وقصص متعددة المعاني، ومغامرات غريبة. وبهذا الشكل نبدأ بالقراءة بأنفسنا...”^١

هذا ما قاله كلاوس مان، ابن توماس مان، “الساحر”， ومليين ذات الصوت المتأثر والرنة المريحة.

١ من كتاب **المعطف** لـكلاوس مان، دار نشر سولان.

رغم كل شيء، فإن هذا الإجماع يدعو إلى الكآبة. كما لو أن دور المدرسة، ابتداءً من ملاحظات روتو حول تعلم القراءة، وحتى ملاحظات كلاوس مان حول تعليم الآداب في منطقة بافيير، مروراً بسخرية زوجة المدرس الشابة ووصولاً إلى شكاوى التلاميذ هنا في أيامنا هذه، يتوقف دائماً وفي كل مكان على تعليم التقنيات وعلى وظائف الشرح، ويقطع الطريق أمام الوصول المباشر إلى الكتب من خلال إقصائه متعة القراءة. يبدو وكأن هناك اتفاقاً أزلياً، وفي كل بقع العالم، على أن المتعة لا مكان لها في المناهج المدرسية وأن تحصيل المعرفة لا يتم إلا عبر عذاب يفهمه الجميع.

ويمكن بالطبع الدفاع عن هذه الفكرة.

فالحجج وافرة.

إذ لا يمكن للمدرسة أن تكون مدرسة استمتع، لأن المتعة تتطلب قدرأ لا يأس به من المجانية. بينما المدرسة مصنع ضروري للمعرفة التي تتطلب الجهد. والمواد التي تُدرس فيها أدوات الوعي. ولا يمكننا أن ننتظر من المدرسين الذين يدرّسون هذه المواد أن يتغذوا بمجانية التعليم الفكري، بينما كل شيء، وبدون استثناء، في الحياة المدرسية - المنهاج، الملخصات، الامتحانات، درجة الطلاب، الصنوف، الأقسام - يؤكد على الهدف التنافسي للمؤسسة التعليمية، التي تخضع، هي نفسها، لسوق العمل.

فإن عرف تلميذ، من وقت آخر، مدرساً يدفعه حماسه إلى اعتبار الرياضيات لذاتها وبالتالي إلى تعليمها كما تُعلم الفنون الجميلة، مدرساً يحب التلميذ بالرياضيات بفضل مجده الخاص، ويتحول الجهد بفضله إلى متعة، فإن

ذلك يخضع للصدفة أكثر مما يخضع لعصرية المؤسسة التعليمية.
إن خاصية الكائنات الحية تكمن في قدرتها على جعلنا نحب الحياة، حتى
لو اتخذ ذلك شكل معادلة من الدرجة الثانية، لكن العيوية لم تكن يوماً جزءاً
من المناهج المدرسية.
الوظيفة هنا.

أما الحياة ففي مكان آخر.
القراءة، يتم تعلمها في المدرسة.
أما حب القراءة...

يجب أن تقرأوا، يجب أن تقرأوا...
 وماذا لو قام المدرس، بدل أن “يُجبر” طلابه على القراءة، بجعلهم
 ”يشاركونه“ سعادته الخاصة بالقراءة؟
 سعادة القراءة؟ ما هو هذا الشيء المسمى ”سعادة القراءة“؟
 إنها بالفعل أسلمة تفترض مراجعة عظيمة للنفس!
 وأول ما نبدأ به هو الاعتراف بهذه الحقيقة التي تعارض العقيدة بشكل
 جذري: أغلب القراءات التي أستتنا لم نقم بها ”من أجل“ بل ”ضد“. لقد
 قرأنا (ونقرأ) كمن يتمترس، أو كمن يرفض، أو كمن يعارض. فإن أعطانا ذلك
 هيئة الفارين، أي إن كان الواقع غير قادر على التأثير فينا لأننا نختبئ خلف
 ”الحجاب السحري“ لقراءاتنا، فإننا فارون مشغولون ببناء أنفسنا، هاربون
 في طريقنا إلى ولادة جديدة.

كل قراءة هي فعل مقاومة. مقاومة ماذا؟ مقاومة كل العوارض الممكنة:
 - اقتصادية.

-
- مهنية.
- نفسية.
- عاطفية.
- مناخية.
- عائلية.
- منزلية.
- قطعية.

- مرضية.

- إيديولوجية.

- ثقافية.

- أو نرجسية.

فالقراءة الذكية تنقذ الإنسان من كل شيء، حتى من نفسه.

وعلاوة على كل ذلك، فإننا نقرأ المحاربة الموت.

مثل كافكا الذي كان يقرأ المحاربة مشاريع أبيه التجارية، وفلانري أو كنور وهي تقرأ رغم سخرية والدتها ("الأبله؟ يناسبك أن تشتري كتاباً يحمل عنواناً كهذا!"), ومثل تيودي وهو يقرأ مونتيسيكي في خنادق معركة فرдан، أو هنري موندور¹ الغارق في قراءة مالارمية في فرنسا أيام الاحتلال والسوق السوداء، ومثل الصحافي كوفمان وهو يعيد لمرات غير معدودة قراءة نفس الجزء من الحرب والسلم في سجون بيروت، ومثل ذاك المريض الذي يخضع لعملية جراحية بدون تخدير والذي يقول عنه فاليري إنه "وجد تخفيفاً لألمه، أو بالأحرى وجد ما يمده بالقوة وبالصبر، في أن يردد لنفسه، بين ذروتي ألم، قصيدة كان يعشقاها"، وبالطبع، أيضاً، مثل مونتيسيكيو (الذي يجعل منه القسر التربوي مادةً لمواضيع إنشاء لا حصر لها) الذي يقول: "لقد شكلت الدراسة بالنسبة لي علاجاً عظيماً ضد أشكال القرف، فلم يصبني حزن ما إلا وانتشدلتني منه القراءة".

وعلى اختلاف ساعات النهار، يحمي ملجاً الكتاب من قرقة المطر، ويقاوم إبهار الصفحات الصامت ضجة المترو، ومثل ذلك الرواية المخبأة في درج السكريتيرة، وقراءة الأستاذ القصيرة بينما يقوم التلاميذ بالجواب على أسئلة الامتحان، والطالب في آخر الصف وهو يقرأ خفية بانتظار أن يسلم ورقة امتحان بيضاء... .

١ طبيب وكاتب فرنسي (١٨٨٥-١٩٦٢) ألف في النقد والتاريخ الأدبي، اهتم كثيراً بمالارمية. (م)

من الصعب أن ندرس الآداب في الوقت الذي تتطلب فيه القراءة هذا القدر من العزلة والصمت.

القراءة فعل تواصل؟ إنها مزحة أخرى من مزحات الشراح! فما نقرأه نصمت عنه. فنحن غالباً ما نحتفظ بمعنـى الكتاب المـقروء في قرارة غيرـتنا، إما لأنـنا لا نجد في ذلك مـادة لـحديث يـرويـ، وإما لأنـه ضـروريـ أن ندعـ الزـمنـ يقومـ بـعملية التـخميرـ الـرائـعةـ قبلـ أنـ يكونـ باـسـتـطـاعـتناـ أنـ تـكـلـمـ عـمـاـ قـرـأـناـ. هـذـاـ الصـمـتـ هوـ ضـمـانـ حـمـيمـيتـناـ. صـحـيـحـ أـنـاـ اـنـتـهـيـناـ مـنـ قـرـاءـةـ الـكـتـابـ لـكـنـتـاـ لـاـ نـزـالـ فـيـهـ. مـجـرـدـ ذـكـرـهـ يـفـتـحـ مـلـجـأـ لـتـمـرـ دـاتـناـ. إـنـهـ يـحـمـيـنـاـ مـنـ "ـالـخـارـجـ الـكـبـيرـ"ـ، وـيـقـدـمـ لـنـاـ نـقـطـةـ مـراـقبـةـ تـعـلـوـ بـكـثـيرـ الـمـشـاهـدـ الـعـارـضـةـ. لـقـدـ قـرـأـنـاـ، وـهـاـ نـحـنـ نـصـمـتـ. إـنـاـ نـصـمـتـ "ـلـأـنـاـ"ـ قـرـأـنـاـ. وـسـيـكـونـ مـنـ الـمـسـتـهـجـنـ أـنـ يـكـمـنـ لـنـاـ شـخـصـ مـاـ بـاـنـتـظـارـ نـهاـيـةـ قـرـاءـتـنـاـ لـيـسـأـلـنـاـ: "ـهـاـاـاـاتـ لـشـوفـ. هـلـ أـعـجـبـكـ مـاـ قـرـأـتـ؟ـ هـلـ فـهـمـتـ؟ـ هـيـاـ قـدـمـ تـقـرـيرـكـ!ـ"ـ.

وأحياناً يكون التواضع سبب صمتنا. ليس المقصود هنا التواضع المجيد لل محللين المهنيين، بل الوعي الذاتي، المتّحد، والمؤلم نوعاً ما، بأن هذه القراءة، بأن هذا الكاتب “غير حيّاتي”， كما يقال.

أو، فجأةً، هذا الانبهار الآخر الذي يعقد اللسان: كيف يُعقل أنّ ما هزّني بعنف لتوه لم يغيّر مجرى العالم في شيء؟ أيعقل أن يكون قرننا على ما هو عليه بعد أن كتب دوستويفسكي الشياطين؟ من أين جاء بول بوت¹ وغيره رغم وجود شخصية

١ زعيم "الخمير الحمر" في كمبوديا لعدة سنوات. (م)

بيوتر فيرخوفنски؟ ورعب المعتقلات بعد أن كتب تشييخوف سخالين؟ من استضاء بنور كافكا الأبيض حيث كانت أسوأ قناعاتنا تتقطع كالواح التوتية؟ ومن استمع إلى والتر بنجامين في الوقت الذي كان الرعب ينتشر فيه؟ وكيف حدث، بعد أن تم كل شيء، أن العالم بأسره لم يقرأ النوع البشري لروبير أنتيلم، ولو لمجرد اعتقاد مسيح كارلو ليفي، الذي أسر نهائياً في إبولي؟

أن تكون بعض الكتب قادرة لهذه الدرجة على هزّ ضميرنا وترك العالم يمضي في أسوأ الطرق، فهو أمر يدعو إلى الذهول.

فلنصل إذًا...

طبعاً ماعدا ثرثاري السلطة الثقافية.

آه من كلام الصالونات التي (وبما أنه ليس لأحد فيها ما يقوله لغيره) تصبح القراءة فيها أحد مواضيع الحديث الممكنة. وتخسف الرواية فتحطّ إلى مستوى "استراتيجية تواصل"! كل هذا القدر من الصراخ الصامت، ومن المجانية العنية، كي يذهب هذا الأحمق ليغازل تلك المرأة الواقعة: "ماذا،

لم تقرأوا رواية سفر إلى آخر الليل؟"

يقتل الإنسان لأقل من هذا.

١ رواية للكاتب الفرنسي سلين. (م)

مع ذلك، فإن لم تكن القراءة فعل تواصل ”مباشر“، فإنها، في ”المحصلة“، مادةً مشاركة. لكنها مشاركة مؤجلة لوقت طويل وانتقائية بشدة.

إذا أخذنا بالاعتبار القراءات المهمة التي ندين بها للمدرسة، للنقد، لكل أشكال الإعلان، أو بالعكس، للصديق، للعشيق، لزميل الصف، بل وللعائلة – عندما لا تكون العائلة من النوع الذي يضع الكتب في الخزانة التربوية – فإن النتيجة ستكون واضحة: إننا ندين بأجمل ما قرأنا لشخص عزيز علينا، وإليه، قبل غيره، نتكلّم عما قرأنا. ربما كان مرد ذلك إلى أن ما يميز الإحساس، ومثله الرغبة في القراءة، هو أنه يقوم على ”الفضيل“. الحب هو، في نهاية الأمر، أن نهبه ما نفضل له للأشخاص الذين نفضّلهم، وتملاً هذه المشاركة القلعة اللامرئية لحريتنا. إننا مسكونون بالكتب والأصدقاء.

عندما يعطينا شخص عزيز كتاباً لنقرأه، فإننا نبحث، قبل كل شيء، عن هذا الكائن العزيز في السطور، نبحث عن أدواته، عن الأسباب التي دعته ليضع هذا الكتاب بين أيدينا، نبحث عن علامات الأخوة. ثم يأخذنا الكتاب فتنسى من جعلنا نفرق فيه. إذ إن من علامات قوة الكتاب، بالتحديد، قدرته على العصف أيضاً بهذاعارض المذكور!

مع ذلك، وبمرور السنين، قد يحدث أن يحيي ذكر النص ذكرى الآخر؛ عندها تحول من جديد بعض العناءين إلى وجوه. ولكي تكون أكثر دقةً ليس هذا الوجه بالضرورة وجه شخص نحبه، بل وجه هذا الناقد أو ذاك المعلم (لكن ذلك نادر!).

كمثال بيير دوماي، بنظرته وصوته وصيته، الذي كان يعبر أيام طفولتي، في

برنامجه التلفزيوني ”قراءات للجميع“، عن كل احترامه للقارئ الذي سأصيده فيما بعد بفضله. وكمثل ذلك الأستاذ الذي كان عشيقه للكتب قادرًا على أن يجعله يتحلى بكل أنواع الصبر وأن يمنحك حتى وهم الحب. ولا بد أنه كان يفضلنا - أو يقدّرنا - نحن الآخرين طلابه، لكي يعطينا لنقرأ أعزّ الأشياء إليه!

في السيرة التي كتبها للشاعر جورج بيرّوس، يستشهد جان- ماري جيال بهذه الجملة لطالبة من مدينة رين حيث كان بيرّوس يعلم:

لقد كان (بيروس) يصل الثلاثاء صباحاً وقد تبعثر شعره بفعل الريح والبرد وهو على دراجته النارية الزرقاء والصادئة، محني الظهر، في معطفه الكحلي، والغليون في فمه أو في يده. كان يفرغ خرجاً كاملاً من الكتب على الطاولة، وعندما كانت الحياة تبدأ.

وما زالت هذه الصبية المعجبة تتكلم عن ذلك حتى بعد مرور خمسة عشر عاماً. تفكك، ورأسها محني فوق فنجان قهوتها، وببطء تستدعي الذكريات، ثم تقول:

- نعم، عندما كانت الحياة تبدأ: نصف طن من الكتب، وغليونات، وتبلغ، وعدد من جريدة فرنس - سوار أو الإكب، ومفاتيح، وملخصات، وفواتير، وشمعة احتراق للدرجة النارية... من هذه الكومة المختلطة كان يتشل كتاباً، وينظر إلينا، ثم يطلق ضحكة كانت تفتح شهيتنا ويدأ بالقراءة. كان يمشي وهو يقرأ، إحدى يديه في جيبه، والأخرى، الممسكة بالكتاب، ممدودة قليلاً إلى الأمام كما لو أنه، بقراءته الكتاب، كان يقدمه لنا. كل تلك القراءات كانت هدايا، ولم يكن يطلب منها شيئاً بال مقابل. وعندما كان يفتر انتباه واحد أو واحدة منها كان يتوقف عن القراءة لثانية وينظر إلى هذا العالم ويصفر قليلاً.

لم يكن ذلك تأنيساً بل كان نداءً فرحاً لاستعادة الانتباه. لم يكن نظره يحيد عنا. حتى في أعمق لحظات قراءته كان ينظر إلينا من فوق السطور. كان يتمتع بصوت رنان ومضيء، رخيم بعض الشيء، يملأ تماماً فراغ الصحفوف كقدرته على ملء مدرج أو مسرح أو "شان دو مارس"^١ دون أن تلفظ الكلمة واحدة أعلى من الأخرى. لقد كان يقيس، بشكل غريزي، المكان وأدمعتنا. لقد كان مكثراً الصوت الطبيعي لكل الكتب، كان تجسيد النص، كان الكتاب وقد تحول إنساناً. من خلال صوته كنا نكتشف فجأةً أن كل هذا كُتبَ "من أجلنا نحن". لقد جاء هذا الاكتشاف بعد فترة دراسة طويلة جداً أبقاناً تعليم الأدب خلالها على مسافة محترمة من الكتب. ما الذي كان يفعله إذاً أكثر من أساتذتنا الآخرين؟ لا شيء. حتى أنه، من بعض النواحي، كان يفعل أقل منهم بكثير. لكنه لم يكن يقدم لنا الأدب عبر قطارنة التحليل، بل كان يمنحه لنا على شكل رشفات كبيرة... وكنا نفهم كل ما يقرأ له. كنا نفهمه سعياً. ولم يكن هناك من شرح للنص أوضح من صوته عندما كان يستيقن قصد الكاتب أو يكشف عن معنى مسخ، أو يفصح عن إيحاء ما... كل فهم خاطئ كان مستحيلاً معه. لقد كان من غير الممكن على الإطلاق، بعد سماعه وهو يقرأ "الحب والتقلب المزدوج"^٢، متابعة التندّر بالغزل وإضفاء اللون الزهري على الدمى البشرية لمسرح التشريح هذا. لقد كانت دقة صوته تدخلنا في مخبر حقيقي، وكان جلاء إلقائه يدعونا إلى ممارسة التشريح. مع هذا فإنه لم يكن يبالغ في الأمر ولم يكن يجعل من ماريغو مجرد مدخل إلى دو ساد^٣. وبالرغم من ذلك فإننا كنا نشعر، طوال قراءته، أننا نرى مقطعاً لدماغي أرلو كان وسيفليا^٤، كما لو أنا كنا مخبري هذه التجربة.

كان يعطينا درساً لمدة ساعة في الأسبوع، وكانت هذه الساعة تشبه خرجه

١ السهل الواسع المحيط ببرج إيفل في باريس. (م)

٢ مسرحية لماريفو (١٦٨٨-١٧٦٣). (م)

٣ الماركيز دو ساد (١٧٤٠-١٨١٤) كاتب فرنسي معروف بكتاباته الإباحية. (م)

٤ شخصيات من المسرحية الآنفة الذكر. (م)

بكل ما يحتويه. عندما غادرنا في نهاية العام، قمت بحساباتي: شكسبيرو، بروست، كافكا، فيالات، ستراندبرغ، كيركigarde، مولير، بيكت، مارييفو، فاليري، هويسمان، ريلكه، باتاي، غراك، هاردلت، سرفاتس، لاكلوس، سيوران، تشيغوف، هنري توماس، بوتو... لا أذكرهم بالترتيب، ولا بد أنني نسيت عدداً مساوياً لهم. ولم أكن قد سمعت، في عشر سنوات، عشرهم! كان يكلمنا عن كل شيء، ويقرأ لنا كل شيء، لأنه "لم يكن يفترض أن رؤوسنا تحتوي على مكتبات". كانت تلك درجة الصفر من سوء النية. كان يعتبرنا كما كنا: خريجي بكلوريا لا يعرفون شيئاً ويستحقون المعرفة. ولم تكن المسألة مسألة تراث ثقافي أو أسرار مقدسة رُفعت إلى الأعلى كالنجوم؛ معه، لم تكن النصوص تهبط من السماء بل كان يلتقطها من الأرض ويعطيها لنا لنقرأها. كان كل شيء هنا، حولنا، يضج بالحياة. وإنني لأذكر خيبتنا، في البداية، عندما تعرّض للكتاب المرموقين، أولئك الذين كان أساس ثقتنا بالطبع قد حذّلّونا عنهم، الكتاب القلائل الذين كنا نتصور أننا نعرفهم جيداً: لافونتين، مولير... بساعة واحدة، فقدوا مكانة مدرسيّة ليصبحوا في نظرنا حميميين وغامضين، أي لا غنى عنهم. كان بيرروس يحيي الكتاب. انهض وامش: من أبولينير إلى زولا، من بريخت إلى وايلد، كانوا يأتون جميعاً إلى صفتنا، أحياه تماماً، كما لو أنهم كانوا خارجين لتوهم من عند "ميشو"، المقهى المقابل للجامعة. وفي هذا المقهى كان يقدم لنا أحياناً استراحة ثانية. ومع ذلك، فإنه لم يكن يمثل دور الأستاذ - الرفيق، إذ لم يكن من ذلك النوع. لقد كان يتبع، بكل بساطة، ما كان يسميه "درس العجل". لقد كانت الثقافة معه تتوقف عن أن تكون عقيدة دولة، وخشبة البار تتحول إلى مصطبة صف. ونحن أنفسنا، لم نكن نشعر، ونحن نصغي إليه، بالرغبة في الدخول في العقيدة أو تقمص لباس المعرفة. كانت رغبتنا الوحيدة هي أن نقرأ، هذا كل شيء... وما إن يسكت حتى نهجم على مكتبات رين وكامبier¹. وبالفعل، كلما كانت قراءتنا تزداد كان يتفاقم شعورنا بأننا جاهلون، ووحيدون على شاطئ جهلنا،

١ مدربتان في فرنسا. (م)

في مواجهة البحر. الفرق هو أننا، بوجوده، لم نكن نخشى على أنفسنا البخل.
كنا نغوص في الكتب دون أن نضيع وقتنا في تخبّط متعدد. لا أعرف كم طالاً
أو طالبة منا أصبح مدرّساً... ليس كثيراً على ما أظن. وفي الحقيقة أعتبر ذلك
خسارة، لأنّه، بكل بساطة، ورثنا رغبة رائعة هي الرغبة في نقل ما نعرف
للآخرين. وأقصد نقل ما نعرف في كل الاتجاهات. هو الذي كان يسخر كثيراً
من التعليم، كان يحلم مازحاً بجامعة متنقلة:

– ماذا لو تمثينا قليلاً... وماذا لو ذهبنا للقاء غوته في فيمار^١، وصرخنا في
وجه الإله مع الأب كيركigarد، وقرأنا الليالي البيض^٢ في "شارع نيفسكي"^٣...

١ مدينة ألمانية. (م)

٢ رواية لدوستويفسكي. (م)

٣ يتلاعب الكاتب هنا بالألفاظ، إذ إن شارع نيفسكي هو اسم قصة لغوغل. (م)

”القراءة، قيمة أليعازر، رفع بلاط الكلمات.“
جورج بيرّوس، من ديوان ”فتحات“.

ذاك المدرس لم يكن يقدم معرفة بل كان يُهدي ما كان يعرفه. لم يكن أستاذًا بقدر ما كان معلماً ترويادوراً^١ - من هؤلاء الشعراء الجوالين المتلاعبين بالكلمات الذين كانوا يمرون بالاستراحات على طريق كومبوستيلا^٢ ويتغدون بتأثير الأبطال أمام الحجاج الأميين.

وبما أن لكل شيء بداية، فقد كان يجمع كل سنة قطبيه الصغير عند البدايات الشفوية للرواية. وكان صوته، كصوت الترويادور، يتوجه إلى جمهور “لا يعرف القراءة”. كان يفتح عيوناً، ويشعل مصابيح، ويقود أتباعه على طريق الكتب، وهو طريق حجّ لا نهاية له ولا يقين فيه، طريق الإنسان نحو الإنسان.

- أهم شيء هو أنه كان يقرأ لنا كل شيء بصوت عالٍ! كم كان واثقاً من رغبتنا في أن نفهم... الإنسان الذي يقرأ بصوت عالٍ يرفعنا إلى مستوى الكتاب. إنه يُقرئنا فعلاً!

١ الترويادور هو الشاعر الجوال في القرون الوسطى كان ينشد مآثر الأبطال مرافقاً بذلك بالعزف على آلة موسيقية. (م)

٢ مركز حجٍّ مسيحيٍّ حيث يوجد قبر القديس جاك، في مدينة كومبوستيل في شمال غرب إسبانيا. (م)

بدلاً من ذلك فإننا، نحن الآخرين الذين قرأنا وندّعي نشر حب الكتاب، نفضل غالباً أن تكون معلقين وشراحاً ومحليين ونقاداً وكتاب سير ومفسرين لأعمال نجعلها خرساء بسبب الشهادة البارزة التي نقدمها عن عظمتها. ويحل كلامنا محلَّ كلام الكتاب وقد صار أسير قلعة مقدراتنا. وبدل أن نترك ذكاء النص يتكلم من خلال فمِنا، فإننا نعتمد على ذكائنا نحن ونتكلم عن النص. لسنا رسول الكتاب بل الحراس المحتلفين لمعبد نتغنى بكتوزه بكلمات تغلق أبوابه. ”يجب أن تقرأ! يجب أن تقرأ!“.

”يجب أن تقرأ“: إنه منطق مقلوب على سمع المراهقين. ومهما كنا لامعين في المماحكة المنطقية... فإن الأمر لا يعود منطقاً مقلوباً ليس إلا. من بين طلابنا، أولئك الذين اكتشفوا الكتب بوسائل أخرى سيتابعون القراءة بكل بساطة، وسيقوم أكثرهم فضولاً بقيادة قراءاتهم على نور مصابيح شروحاتنا الأكثر إضاءة.

ومن بين أولئك ”الذين لا يقرأون“ سيتعلم أكثرهم فطنة، كما تعلمنا نحن، كيف ”يتكلم عن الكتب“: سيصبحون مميزين في فن الشرح التضخيمي (أقرأ عشرة سطور، وأبيض عشر صفحات)، وفي الممارسة الوحشية لملخص القراءة (أطلع على ٤٠ صفحة، وألخصها في خمس صفحات) وفي الصيد المحكم للاستشهادات (يجدونها في موجزات الثقافة المجلدة في برادات بائعي النجاح)، وسيتعلمون استخدام مشرط التحليل الخطي ويصبحون خبراء في الإبحار العذر بين ”النصوص المختارة“ التي توادي بالتأكيد إلى الحصول على البكالوريا والليسانس وحتى على درجة الأستاذية... لكنها لا تقود حتماً إلى معبة الكتاب.

ويقى الطلاب الآخرون.

أولئك الذين لا يقرأون والذين ترعبهم باكرآ إشعاعات ”المعنى“.

أولئك الذين يظنون أنهم أغبياء...

وأن الكتاب حُرم عليهم إلى الأبد...

وأنهم سيقولون دون جواب إلى الأبد...

و QUIRIA دون أسئلة.

تعالوا نحلم.

لنفترض أننا في الامتحان المسمى "الدرس" في مسابقة الأستاذية في الآداب.

موضوع الدرس هو: "مستويات الوعي الأدبي في رواية مدام بوفاري". الشابة الصغيرة المتقدمة للمسابقة جالسة في مقعدها، في مستوى أدنى بكثير من مستوى أعضاء لجنة التحكيم الستة الجالسين هناك في الأعلى، فوق منصتهم. ولكن نزيد من عظمة الموقف دعونا نفترض أن المشهد يجري في مدرج السوربون الكبير، حيث رائحة القرون والخشب المقدس، وصمت المعرفة العميق.

وجمهور قليل مكون من أقارب وأصدقاء مبعثرين في المدرج، بقلب واحد، يسمعون دقاته تتناغم مع خوف الشابة الصغيرة. كل الصور تُرى من الأسفل إلى الأعلى، والشابة قابعة في القعر، يسحقها الخوف مما بقي لها من جهل.

طفقفات خفيفة، سعالات مخنوقة، إنها الأبدية أمام الامتحان. تضع اليد المضطربة للشابة أوراق ملاحظاتها أمامها، وتفتح نوطة معرفتها: "مستويات الوعي الأدبي في مدام بوفاري".

رئيس لجنة التحكيم (بما أنها في حلم، دعونا نلبسه ثوب المحكمين الأحمر القاني)، و يجعله متقدماً في العمر، بأكتاف سدور، وشعر مستعار يتهدل

كاذبي كلب كوكب¹ فيزيد من حدة تجاعيده الغرانيتية) رئيس لجنة التحكيم، إذا، ينحني على يمينه ويرفع طرف الشعر المستعار لزميله ويهمس كلمتين في أذنه. مساعد رئيس اللجنة (أصغر سنًا، بلامع نضوج وردّي اللون ينتمي إلى المعرفة، يرتدي نفس الثوب وله نفس الشعر المستعار) يهز رأسه بخطورة علامة الموافقة، وينقل نفس الكلام لجاره بينما الرئيس يهمس عن يساره. وتنتقل الموافقة بهز الرأس إلى طرف الطاولة.

“مستويات الوعي الأدبي في مدام بوفاري”. ولا ترى الشابة التائهة في كُتبيات ملخصاتها، التي أفقدتها صوابها البلبلة المفاجئة لأفكارها، أعضاء لجنة التحكيم وقد وقفوا، لا تراهم وقد نزلوا من المنصة، لا تراهم وقد اقتربوا منها، لا تراهم وقد أحاطوا بها. ترفع عينيها لتفكير فترى نفسها حبيسة شبكة نظراتهم. كان يجب أن تشعر بالخوف، لكنها مشغولة جداً بالخوف من الآ تعرف. بالكاد تسأله: لماذا هم قريبون مني لهذه الدرجة؟ وتعود إلى الغوص في ملاحظاتها. “مستويات الوعي الأدبي...” لقد أضاعت مخطط درسها. رغم أنه كان مخططًا واضحًا تماماً ما الذي فعلته بمخطط درسها؟ من سعيد لها وضوح براهينها؟

— يا آنسة... .

لكن الصبية لا تريده أن تصغي للرئيس. وها هي تبحث، تبحث عن مخطط درسها الذي أطارته زوبعة معرفتها.

— يا آنسة... .

إنها تبحث ولا تجد. “مستويات الوعي الأدبي في مدام بوفاري”... تبحث وتجد كل الأمور الأخرى، كل ما تعرف. ما عدا مخطط درسها، إلا مخطط درسها.

— يا آنسة، أرجوك... .

هل لأن يد الرئيس حطّت على كتفها؟ (ومنذ متى كان روّاس لجان التحكيم في مسابقة الأستاذية يضعون أيديهم على أذرع المتقدمين للمسابقة؟) أم هو

١ كلب إنكليزي له أذنان طويتان تهدلان على جانبي الرأس. (م)

التضرع الطفولي غير المتوقع إطلاقاً في هذا الصوت؟ أم لأن مساعدتي الرئيس بدأوا يتسللُون على كراسيهم (فقد حمل كلّ منهم كرسيه وجلسوا جميعاً حولها)... ترفع الصبيبة في النهاية عينيها:

- يا آنسة، أرجوك، دعي جانباً مستويات الوعي...

نزع الرئيس ومساعدوه شعورهم المستعار، وبأن شعرهم الحقيقي مبعثراً
كشعرأطفال صغار، وطلبو منها بعيون مفتوحة تماماً وبلهفة جائع:

- يا آنسة... احكي لنا مدام بوفاري!

- لا، لا، احكي لنا بالأحرى روایتك المفضلة!

- نعم، نزهة المقهي العززين! بما أنك تحبين كثيراً كارسون ماكولر، يا آنسة،
احكِي لنا نزهة المقهي العززين!

- ثم تعطينا الرغبة في قراءة أميرة كليف، أليس كذلك؟

- أعطينا فعلاً الرغبة في القراءة يا آنسة!

- الرغبة فعلاً!

- احكي لنا أدولف!

- اقرئي لنا دودالوس، فصل النظارات!

- كافكا! أي شيء من يومياته...

- سفيفو! وهي زينو!

- اقرئي لنا مخطوطة ساراغوس!

- الكتب التي تقضلين!

- فيرديدورك!

- تعاويد الأغياء!

- لا تنظرني إلى الساعة، عندنا وقت!

- أرجوك...

- احكي لنا!

- يا آنسة...

- احكي لنا!

- الفرسان الثلاثة...

- ملكة التفاح ...
- جول وجيم ...
- شارلي ومعمل الشوكولا!
- ملك الكلمات المعاوّجة!
- بازيل!

الفصل الثالث

تشجيع على القراءة

لتأخذ صفاً من صفوف المراهقين، يحتوي على حوالي خمسة وثلاثين تلميذاً. وهم ليسوا من أولئك التلاميذ المتنقين بعنایة لاجتیاز أبواب الجامعات الكبیرى بسرعة، لا، إنهم من النوع "الآخر"، من الذين لم تقبل بهم الثانويات المشهورة لأن مستواهم لا يسمح لهم بأن يحصلوا على البكالوريا بعلامات جيدة، بل قد لا يسمح لهم بالحصول على البكالوريا إطلاقاً.

نحن في بداية العام.
لقد "رسوا" هنا.
في هذه المدرسة.
أمام هذا المدرس.

"رسوا" كلمة معبرة فعلاً. فقد رسوا على الشاطئ بينما زملاء الأمس صاروا في "أعلى" البحر على متن ثانويات - سفن منطلقة نحو مستقبل عظيم. وهم يصفون أنفسهم، عندما يملأون كالعادة استماراة بداية السنة، بهذا الشكل:
الاسم، الشهرة، تاريخ الولادة...

معلومات إضافية:

"لقد كت دوماً شيئاً في الرياضيات"... "اللغات لا تثير اهتمامي"..."لا أستطيع التركيز"... "لست أهلاً للكتابة"... "هناك مفردات زيادة عن اللزوم في الكتب" (أنقل ذلك حرفاً! نعم حرفاً!)... "لا أفقه شيئاً في الفيزياء"... "حصلت دائمًا على علامة الصفر في الإملاء"..."في مادة التاريخ، أستطيع أن أسلك، لكنني لا أحفظ التاريخ"... "أعتقد أنني لا أدرس بما فيه الكفاية"... "أعاني من صعوبة في الفهم"..."لقد فاتتني أشياء

كثيرة”... “أتمنى أن أرسم لكنتي لست شاطرًا في ذلك”... “كان الأمر صعباً جداً بالنسبة لي”... “ذاكرتي ضعيفة”... “تنقصني الأساسيات”... “تنقصني الأفكار”... “لا أجد كلمات أعبر بها”... ”منتهمون“...

هكذا يرون أنفسهم.

إنهم منتهون قبل أن يبدأوا.

طبعاً، يبالغون قليلاً. هذا النوع من الاستفسارات يتطلب ذلك. فالاستماراة الشخصية، كما اليوميات الخاصة، تستدعي النقد الذاتي: يسود المرء صورته بشكل غريزي. ثم إننا عندما نتهم أنفسنا من كل النواحي فإننا نضع أنفسنا في منأى عن كل ما قد يطلب منا. وتكون المدرسة قد علّمتهم على الأقل هذا: الراحة التي يمنحها القدر. إذ لا شيء يربح أكثر من صفر دائم في الرياضيات أو في الإملاء: فالبالغاء كل إمكانية للتقدم، يخلص الطالب من كل منغصات الجهد. أما فيما يخص الاعتراف بأن الكتب تحتوي على ”مفردات زيادة عن اللزوم“، فمن يدرى؟ ربما وضعه ذلك في مأمن من القراءة...

بالرغم من ذلك، فهذه الصورة التي يعطياها هؤلاء المراهقون عن أنفسهم لا تشبههم: إذ ليس لهم مظهر الطالب الكسول بوجهه الواطنة وذقنه المربعة كما يمكن أن تخيله مخرج سينمائي فاشل عند قراءة تلغرافاتهم السير الذاتية.

لا، إن لهم مظاهر عصرهم المتعددة: تسريحة على شكل موزة وجزمة جلد سانتياغ¹ لمن تقمص شخصية مغني روك، ثياب من ماركة بورلانغتون وشيفينيون² لمن يحمل بالملابس، سترة برفكتو³ لكن بدون دراجة نارية، شعر طويل، أو قصير خشن، حسب الميل العائلي... تلك الفتاة، هناك، تعوم في قميص أبيها الذي يصل إلى ركبتي جينزها الممزقتين، وتلك الأخرى اتخذت مظهر أرملة من صقلية في ثيابها السوداء (ولسان حالها يقول: ”لم يعد هذا

١ ماركة جزمات جلد. (م)

٢ من ماركات الثياب المعروفة. (م)

٣ سترة جلد يلبسها سائقو الدراجات النارية. (م)

العالم يعنيبي“)، في حين أن جارتها الشقراء، على العكس منها، وضعت كل ثقلها في الجانب الجمالي: قامةً كما في لوحات الإعلانات ورأس كما على أغلفة المجالات الصقلية بعنابة.

لقد خرجنوا لتوهم من النكاف والحصبة، وهما هم الآن في العمر الذي يريدون فيه أن يكونوا “عالموضة”.

وهم، في غالبيتهم، طوال القامة، أطول من الأستاذ بكثير، والشبان ذوو بنية صلبة، والبنات ذوات قامات حقيقة!

يبدو للمعلم أن مراهقته كانت أقل وضوحاً... فقد كان ضعيف البنية نوعاً ما... من بضاعة ما بعد الحرب... ومن رُبوا على الحليب الجاف لخطة مارشال... لقد كان الأستاذ حينها يُعاد بناؤه، مثله مثل باقي أوربا... بينما هم، شكلهم شكل نتائج.

هذه الصحة وهذا الانسجام مع الموضة يمنحهم سمة ناضجة قد تخلق رهبة عند الآخرين. حتى أن قصصات شعرهم وملابسهم وسماعات الموسيقا في آذانهم والآلاتهم الحاسبة ومعجم مفرداتهم وتحفظهم، كلها يمكن أن توحى بأنهم “متأقلمون” مع زمنهم أكثر من أستاذهم، وأنهم يعرفون عن هذا الزمن أكثر مما يعرف هو...

أكثر مما يعرف عن ماذا؟

هذا هو بالتحديد لغز سمعتهم...

إذ لا شيء أكثر غموضاً من سمة ناضجة.

ولو لم يكن الأستاذ معتقداً “قلع أضراسه” لكان شعر أنه خارج الزمان الحاضر، وأنه لم يعد “على الموضة”... لكن مرّ على رأسه الكثير من الأطفال والمراهقين خلال عشرين سنة من التدريس... ثلاثة آلاف وأكثر... ومرّت على رأسه م ospات كثيرة... لدرجة أنه رأى بعضها يعاود الظهور!

الشيء الوحيد الذي لم يتغير هو الاستمارة الشخصية. الجمالية “الهدامة” بكامل تبحّحها: أنا كرسول، أنا “غشيم”， أنا لا أفقه شيئاً، لقد حاولت كل شيء، لا تتعب نفسك فماضي لا مستقبل له...

باختصار، نحن لا نحب أنفسنا. ونعتبر عن ذلك بقناعة مازالت طفولية.

إننا، في المحصلة، بين عالمين. وقد فقدنا التواصل مع الاثنين. إننا بالتأكيد ”عاليّة“ و ”على كيفك“ (وإلا شو!) لكن المدرسة ”تموّتنا من الضحك“، ومتطلباتها ”تدوخ رأسنا“، ونحن لسنا بالصغرى لكننا ”نتحت“ بانتظار أن نصبح كباراً...^١.
نُتمنى أن نكون أحراراً لكننا نشعر أننا مهمّلون.

١ الكلمات بين هلالين تشكل جزءاً من قاموس مفردات الشبان اليوم في فرنسا. (م)

وطبعاً، لا نحب القراءة. فالكتب تحوي الكثير من الكلمات، والكثير من الصفحات أيضاً. وفي النهاية، حتى الكتب نفسها كثيرة جداً.
لا، لا نحب القراءة بالفعل.

هذا على الأقل ما تدلّ عليه هذه الغابة من الأصابع المرفوعة عندما يطرح الأستاذ السؤال التالي:

– من لا يحب القراءة؟

حتى أن هناك نوعاً من التحدى في شبه الإجماع على هذا. أما بالنسبة للأصابع القليلة التي لم تُرفع (ومن بينها إصبع الأرملة الصقلية) فإن السبب يعود إلى اللامبالاة التامة بالسؤال المطروح.

قال الأستاذ: طيب، بما أنكم لا تحبون القراءة... فانا من سيقرأ لكم كتاباً.

وبدون مقدمات قام بفتح حقيته وأخرج منها كتاباً سميكاً، كالمكعب، شيئاً ضخماً فعلاً، وبغلاف صقيل. من أكثر الكتب إدهاشاً، كما يمكن أن تخيلها.

– جاهزون؟

لم يصدق التلاميذ أعينهم ولا آذانهم. أسيروا لهم هذا الرجل فعلاً كل هذا؟
العمي، ستفضي السنة كلها في ذلك! سادت الحيرة... بل وساد نوع من التوتر... لا يوجد أستاذ يقترح أن يمضي السنة الدراسية في القراءة. فاما أنه كسول جداً، وإما أنه يخفي شيئاً ما. هناك خدعة تترّىص بنا. سيفرض حتماً علينا لائحة المفردات اليومية، وكذلك ملخص القراءة الدائم...»

تبادلوا النظر فيما بينهم. وقام بعضهم (من باب الحيطة) بوضع ورقة وتجهيز أقلامهم أمامهم.

- لا، لا، لا داعي لتسجيل ملاحظات. حاولوا فقط أن تصغوا.
عندما انطربت مسألة "الوضعية". إلام يؤول جسد في قاعة الدرس بدون عذر قلم الحبر الناشف والورقة البيضاء؟ ما الذي يمكن أن يفعله المرء بنفسه في وضع كهذا؟

- خذوا راحتكم، اجلسوا بارتخاء...

(بأ الله عليك، اسمع هالأفندى، قال "خذوا راحتكم" قال...) وأخيراً قام أبو ترسية الموزة وجزمة السانتياخ، الذي تغلب عنده الفضول، بالاستفهام:

- أتريد أن تقرأ لنا كل هذا الكتاب بصوت عال...؟

- لا أعتقد أن بإمكانك أن تسمعني إن قرأتُ الكتاب قراءة صامتة...
ضحك خفييف. لكن "الأرملة الصقلية" لا تصدق هذا الكلام، ولها

همست بصوت رنان بما فيه الكفاية حتى يسمعه الجميع:
- لقد كبرنا على ذلك.

وهو حكم مسبق كثير الانتشار... خاصة بين أولئك الذين لم يقم أحد يوماً بتقديم القراءة هدية لهم. الآخرون يعرفون أن هذا النوع من المتع لا يتوقف على عمر بذاته.

- إذا بقيت، بعد عشر دقائق، تعتدين أنك "كبرت على ذلك"، يكفي أن ترفعي إصبعك، وعندما ستترك القراءة إلى شيء آخر. موافقة؟
- أي نوع من الكتب هذا؟ هكذا تسائل أبو ثياب ماركة بورلانغن بلهجـة من مرّ على رأسه الكثير !
- هذه رواية.

- عم تتحدث؟
- من الصعب معرفة ذلك قبل أن نقرأها. طيب، هل أنتم جاهزون؟ انتهـت المناقشـات. لبدأ!
وكانوا جاهزين... يشكـون، لكنـهم جاهـزون.

- الفصل الأول:

في القرن الثامن عشر عاش في فرنسا رجل يُعد واحداً من الشخصيات الأكثر عبقرية والأكثر مقتاً، في ذلك العصر الذي كثرت فيه العبريات المقيمة...

(....)

في الزمن الذي نتكلم عنه كانت تسود المدن رائحة نتن لا يكاد يستطيع إنسان اليوم تخيلها. كانت تنتشر رائحة الروث في الشوارع، ورائحة البول في خلفيات الباحات، ورائحة الخشب العفن وبراز الجرذان في مداخل الأبنية، ورائحة الملعوف الفاسد ودهن الخراف في المطابخ؛ وكانت غرف السكن سينية التهوية مفعمة برائحة الغبار الراكد ورطوبة أغطية الأسرّة والغفونة الحمضية للمرأحيض الثالثة. وكانت المداخن تبصق رائحة كبريتية بشعة، ومحلات الدباغة رائحة منقوعاتها اللاذعة، والمسالخ نتن الدم المتاخر. وكانت تفوح من الناس رائحة أسنانهم العفنة، ومن معداتهم رائحة عصير البصل، ومن أجسادهم، ما إن يفارقهم سن الشباب، رائحة الجبنة العفنة والحليب المحمض والأورام الجلدية. وكانت رائحة النتن تنتشر من الأنهر والساحات والكنائس ومن تحت الجسور وفي القصور. وكانت تبعث من الفلاح أسوةً بالكافر، ومن الشغيل كما من زوجة معلمه، ومن أعلى الطبقات النبيلة إلى أسفلها، وحتى الملك نفسه كانت تفوح منه رائحة بشعة كوحش بري، ومن المملكة كذلك، كمعزاة عجوز، في الصيف كما في الشتاء...^١

١ من رواية باتريك سو سكند العطر (منشورات فايار)، ترجمة برنار لورتولاري.

ياعزيزي السيد سوسكند، شكرالله! إن صفحاتك لتنشر عطراً يوسع الخياشيم
ويفرح القلب. لم تتمتع روایتك العطر يوماً بقراء متحمسين كهؤلاء التلامذة
الخمسة والثلاثين، الذين لم يكونوا مهنيين لقراءتك. وإنني لأرجوك أن تصدق أنه
بعد مضي الدقائق العشر الأولى وجدت "الأرملة الصقلية" مناسباً تماماً لعمرها.
وقد كان مثيراً للحنان منظر كل هذه الوجوه بتقلصاتها الصغيرة في محاولة لكتمان
ضحكها حتى لا يشوّش على نثرك. وكانت علينا "أبو ثياب ماركة بورلانغتون"
تسعان لتصبحاً كاذبين، وما إن ينسى أحد زملائه نفسه وبطلاق ضحكته حتى
كان ينهره: "هس! العمى، سكر تملّك". في حوالى الصفحة اثنتين وثلاثين، في
الأسطر التي تقارن فيها جان باتيست غرونوي^١، المقيم آنذاك عند السيدة غايّار،
عندما تقارنه بقرادة في حالة كمرين دائم (أتذكر؟) "القرادة المتوحدة، المركزية
والمحببة في شجرتها، عمياً، صماء، خرساء، مشغولة تماماً باشتمام رائحة
الحيوانات التي تمرّ على بعد عدّة فراسخ...")، إذ، عند هذه الصفحات تقرّياً،
عندما ننزل للمرة الأولى في الأعمق اللزجة لجان باتيست غرونوي، نام الطالب
أبو تسرية الموزة وجزمة السانتياخ، وقد وضع رأسه بين ذراعيه المطويتين. لا،
لا، لا توظّوه، لا شيء أفضل من نوم عميق بعد قصبة هزازة، وحتى أن هذه أول
متعة من متع القراءة. لقد عاد طفلاً صغيراً، أبو موزة وجزمة السانتياخ، في حالة
ثقة تامة... ولقد بقي صغيراً عندما استيقظ على رنين الجرس هاتفاً:
– اللعنة، لقد نمت! ما الذي حصل عند السيدة غايّار؟

^١ اسم الشخصية يعني: جان باتيست الضفدع. (م)

وشكراً لكم أيضاً أيها السادة: ماركيز، كالفيتو، ستفسنون، دوستويفسكي، ساكى، أمادو، غاري، فانت، داهل، روشي، أحياكم أم مواناً! ولا واحد من بين هؤلاء الطلبة الخمسة والثلاثين العصيين على القراءة انتظر أن يصل الأستاذ إلى نهاية كتاب من كتبكم؛ لقد كانوا يشترون الكتاب ليتموه قبل أن ينتهي الأستاذ من قراءته. إذ لماذا تأجيل متعة يمكن التلذذ بها في أمسية واحدة إلى الأسبوع القادم؟

- من هو سوسكيد هذا؟

- أما زال حياً؟

- أي كتاب كتب غير هذا؟

- هل روايته العطر مكتوبة بالفرنسية؟ كأنني بها مكتوبة بالفرنسية. (شكراً، شكرأ لك يا سيد لورتولاري، شكرأ أيها السيدات والسادة المترجمين، أنتم يا نوار عيد العنصرة، شكرأ!).

ومرت الأسابيع ...

- قصة موت معلن رائعة! وما الذي تحكيه مائة عام من العزلة يا أستاذ؟

- آه فانت، يا أستاذ، فانت! روايته كلبي غبى! يا الله ما أطرفها!

- والعحياة أمامنا لأجار... بالأحرى لغارى... رائع!

- إن روالد داهل فظيع فعلاً! قصة المرأة التي تقتل زوجها بضررها فخذ

١ الكاتب الأميركي جورج فانت. (م)

٢ رومان غاري كتب عدة روايات باسم مستعار هو إميل أجار. (م)

خروف ثم تطعم أداة الجريمة للشرطة، جعلتني أموت من الضحك!
ليكن، ليكن... صحيح أن الوسائل النقدية مازالت غير دقيقة... لكن ذلك
سيأتي... لندعهم يقرأون... وستأتي الوسائل النقدية لاحقاً...
- إن أخذنا بالاعتبار المضمون، يا أستاذ، فإن كتب الفيكونت المقتول^١
والدكتور جيكل ومستر هايد^٢ وصورة دوريان غراي^٣ تعالج كلها تقريباً نفس
الموضوع: الخير، الشر، القرین، الضمير، الغواية، الأخلاق الاجتماعية،
وكل هذا، أليس كذلك؟
- بلـى.

- وراسكولنيكوف^٤، يمكن أن نقول عنه إنه شخصية "رومانسية"؟

الم أقل لكم إن الحس النقطي سيأتي لاحقاً...

١ قصة فلسفية لإيتالو كاليفينو. (م)

٢ قصة بقلم روبر لويس ستفنسون. (م)

٣ رواية لأوسكار وايلد. (م)

٤ الشخصية الرئيسية في رواية الجريمة والعذاب لدوستويفסקי. (م)

لم تحصل معجزات، رغم ذلك. وفضل الأستاذ، في هذه المسألة، شبه معدوم. إذ أن متعة القراءة كانت موجودة وقريبة جداً، لكنها كانت حبيسة أقبية المراهقة، سجنها فيها خوف غير معلن: الخوف (القديم جداً، جداً) من عدم "الفهم".

بكل بساطة، لقد نسي هؤلاء التلاميذ ما هو الكتاب، وما الذي يمنحه الكتاب. لقد نسوا مثلاً أن الرواية "تحكي"، قبل كل شيء، قصة". لم يكونوا يعرفون أن الرواية يجب أن تقرأ كرواية، أي أن دورها، "قبل أي شيء آخر"، هو في رواية عطشنا إلى القصة.

لإثبات هذه الرغبة الجامحة أسلمنا أمرنا، منذ وقت طويل، إلى الشاشة الصغيرة، التي تقوم بدورها بلا انقطاع، من الرسوم المتحركة إلى المسلسلات والحلقات المختلفة إلى أفلام الرعب... في سلسلة غير منقطعة من الشخصيات والمواصفات المقولبة التي يمكن استبدال بعضها ببعض بسهولة: إنها وجنتنا من القصص المتخيلة. وهي وجدة تحشو الرأس، كما نحشو البطن إذ نشعر بالشبع في وقتها، لكن ذلك لا يدوم، فالهضم يتم في اللحظة ذاتها، ويشعر الإنسان بنفسه وحيداً بعدها، كما كان وحيداً قبلها.

خلال قراءة العطر أمام الجميع، وجدنا أنفسنا أمام سوسكند: هي قصة بكل تأكيد، قصة جميلة وطريفة وباروكية، لكنها "صوت" أيضاً، صوت سوسكند (فيما بعد، أثناء موضوع التعبير، سنسمى ذلك "أسلوبياً"). نعم، إنها قصة، ولكنها قصة يرويها "شخص ما".

- غير معقول، هذه البداية، يا أستاذ: "كانت رائحة بشعة تفوح من

الغرف... وتفوح من الناس... وتفوح من الأنهر... وتفوح من الساحات... وتفوح من الكنائس... وتفوح من الملك...“، بينما نمنع نحن من التكرار! مع ذلك فالنص جميل، ألا توافقني؟ إنه طريف، لكنه جميل أيضاً، أليس كذلك؟ نعم، إن سحر الأسلوب يزيد من متعة القصة. وعندما ننهي قراءة الصفحة الأخيرة يبقى في رفقتنا صدى ذلك الصوت. ثم أن صوت سوسكند، رغم أنه يصلنا عبر الفلتر المزدوج، فلتر الترجمة وفلتر صوت الأستاذ، يختلف عن صوت ماركيز، “يلاحظ ذلك فوراً”， أو عن صوت كالفينو. من هنا يأتي هذا الانطباع الغريب بأنه في الوقت الذي يتكلم فيه الإنسان المقولب لغة عادية يتكلمها الجميع، فإن سوسكند وماركيز وكالفينو يتكلمون لغتهم الخاصة بهم، ويتجهون بكلامهم إلى أنا وحدي، ولا يرونون قصتهم إلا “لأجل أنا”， أنا الأرملة الصقلية الشابة، أنا أبو سترة برفكتو لكن بدون دراجة نارية، أنا أبو تسرية الموزة وجزمة السانتياخ، أنا أبو البورلانغون، أنا الذي لم أعد أخلط بين أصواتهم بل إني صرت أفضل بعضهم على بعضهم الآخر.

بعد ذلك بسنوات عديدة، أمام المجموعة المنفذة لحكم الإعدام، سيتذكر أورليانو بوينديا بعد ظهر ذلك اليوم البعيد من أيام طفولته يوم قاده جده ليتعرف على الجليد. كانت ماكوندو حينها قرية تضم حوالي عشرين منزلة من الطين والقصب، مبنية على شاطئ نهر تدرج مياهه الصافية حجارةً مستديرة كبيض ما قبل التاريخ.¹

لقد حفظت أول جملة من مائة عام من العزلة عن ظهر قلب! مع هذه الحجارة “المستديرة كبيض ما قبل التاريخ”...
(شكراً لك يا سيد ماركيز. بفضلك قمنا بلعبة دامت طيلة السنة وهي لعبة تقوم على حفظ الجمل الأولى أو المقاطع المفضلة من رواية أعجبتنا).
— أنا، ما أعجبني هو بداية رواية أدولف التي تتكلم عن الخجل، أتذكرة؟

١ غابرييل غارسيا ماركيز، مائة عام من العزلة.

”لم أكن أعرف أن أبي كان خجولاً، حتى مع ابني، وأنه، بعد أن انتظر مني طويلاً علامات حب كانت برودته الظاهرة تمنعني من التعبير عنها، غالباً ما كان يغادرني وقد أغمرت عيناه بالدموع، شاكياً للآخرين أنني لم أكن أحبه“.

- وكان الرواية تتحدث تماماً عني وعن أبي!

لقد كنا منغلقين على أنفسنا أمام الكتاب المغلق، وهو نحن الآن نسبح، مفتتحين، بين صفحاته.

من المؤكّد أن صوت الأستاذ قد ساعد على تحقيق هذه المصالحة وذلك بان وفّر علينا جهد فك الرموز، ورسم لنا بوضوح الظروف والحالات، بأن وضع بنفسه الديكورات، وجسّد الشخصيات، وأشار إلى المواضيع، وكثير بعض الأمور الدقيقة، بأن قام على أفضل وجه بعمله ككاشف ضوئي.

لكن سرعان ما يتحول صوت الأستاذ إلى تشويش: ممتع لكنه يشوّش على فرح من نوع آخر، أكثر ذكاء.

- إن قراءتك تساعدنا يا أستاذ، لكنني أسرّ كثيراً عندما أصبح بمفردي مع الكتاب.

ذلك أن صوت الأستاذ - قصة مُهداة - صالحته مع الكتابة، وبذلك أعادت إلى طعم صوت طفولتي السري والصامت، ذلك الصوت الذي، قبل نحو عشر سنين، أفعم بالإعجاب والدهشة عند اكتشافه أن ”ماما“ على الورق جميلة وحقيقة كالألم في الواقع.

المتعة الحقيقة للرواية تأتي من اكتشاف هذه الحميمية المتناقضة: المؤلف وأنا... عزّلة هذه الكتابة التي تطلب إعادة إحياء النص من خلال صوتي الصامت والمتوحد.

والأستاذ هنا لا يلعب سوى دور الخطابة، وقد حان الوقت كي يختفي منسلاً على رؤوس أصحابه.

إضافةً إلى هاجس عدم الفهم، هناك أيضاً خوف آخر يجب قهره كي تتم مصالحة هؤلاء الطلاب مع القراءة الفردية، إنه الخوف المتعلق بالمدّة. المقصود هنا مدّة القراءة، حيث يُنظر إلى الكتاب وكأنه من المستحيل إنهاؤه!

عندما رأينا رواية العطر تخرج من خرج الأستاذ اعتقדنا في البداية أنه جبل جليدي! (نبين هنا أن الأستاذ اختار - عن قصد - الطبعة الدارجة الصادرة عن دار نشر فايار، وهي طبعة بحروف كبيرة وبمسافات كبيرة بين السطور وبها وامش عريضة، أي كتاب ضخم في نظر هؤلاء العصبيين على القراءة، كتاب يُعدُّ بعداً لـلا نهاية له).

لكنها هو قد بدأ يقرأه، وبدأ الجبل الجليدي يذوب بين يديه! صار الزمن مختلفاً، وأخذت الدقائق ترکض كثوانٍ وما إن فرئت أربعون صفحة حتى كانت الساعة قد انتهت.

الأستاذ يقرأ أربعين صفحة في الساعة.

أي ٤٠٠ صفحة في عشر ساعات. يمكنه إذاً بمعدل خمس ساعات مخصصة للفرنسية في الأسبوع، أن يقرأ ٢٤٠٠ صفحة في الفصل! ٧٢٠٠ صفحة في العام الدراسي! أي سبع روايات تبلغ كل منها ١٠٠٠ صفحة! كل ذلك في خمس ساعات قراءة أسبوعية فقط!

إنه اكتشاف رائع يغير كل شيء! إن الكتاب، بعد كل حساب، يُقرأ بسرعة: بساعة قراءة واحدة في الأسبوع أنهى رواية من ٢٨٠ صفحة! ويمكنني قراءتها في ثلاثة أيام فقط إذا خصصت للقراءة أكثر من ساعتين بقليل! ٢٨٠ صفحة

في ثلاثة أيام! أي ٥٦٠ صفحة في ستة أيام عمل. وأما إذا كان الكتاب فعلاً "حلو" (كتاب ذهب مع الريع، يا أستاذ، فعلاً كتاب حلواً) وإذا منحنا أنفسنا أربع ساعات إضافية يوم الأحد (وهذا ممكن تماماً، ففي يوم الأحد تكون الصالحة التي يسكن فيها أبو ترس يحة موزة وجزمة سانتياخ في حالة قيلولة، أما أبو ثياب برلنغنون فيأخذنه أهله معهم إلى الريف حيث يقتله الملل) فإننا نحصل على ١٦٠

صفحة إضافية، وهكذا يكون المجموع ٧٢٠ صفحة!

أو ٤٥ صفحة إذا قرأت بسرعة ثلاثين في الساعة، وهي سرعة وسطية
وله جداً.

و ٣٦ صفحة إذا "تدرّجت" بسرعة عشرين في الساعة.

- ٣٦٠ صفحه في الأسبوع، وانت؟

عدوا صفحاتكم... فالقارئ يبدأ أولاً بالاندهاش الممزوج بالإعجاب أمام عدد الصفحات المقرؤة، ثم تأتي اللحظة التي يرتعب فيها من قلة عدد الصفحات الباقية للقراءة. لم تبق سوى ٥٠ صفحة! سوف ترون... لا شيء أللّذ من هذا الأسف: العرب والسلم مجلدان ضخمان... ولم تبق سوى ٥٠ صفحة للقراءة.

فنبطه، ونبطه، لكن دون جدوى...

لقد تزوجت ناتاشا أخيراً من بيسير بيز وخوف، وهذه هي النهاية.

لكن أين سأقتطع ساعة القراءة اليومية هذه في برنامج عملي اليومي؟ أمن حصة الأصحاب؟ أم التلفزيون؟ أم التنقلات؟ أم السهرات العائلية؟ أم الواجبات؟
أين سأجد "الوقت للقراءة"؟ مشكلة كبيرة.

ولكنها في الحقيقة ليست بالمشكلة.

فعموماً نطرح مسألة وقت القراءة، فمعنى ذلك أن الرغبة في القراءة غير موجودة. لأن، إذا تمعنا في الأمر، "لا أحد لديه الوقت للقراءة"، لا الصغار، ولا المراهقون، ولا الكبار. فالحياة عائق دائم أمام القراءة.
- القراءة؟ أتمنى ذلك، لكن الشغل، والأولاد، والمنزل، لم يعد لدى الوقت ...

- كم أحسدى لأن لديك الوقت للقراءة!

ولماذا هذه المرأة التي تعمل، وتسوق، وتربى أطفالها، وتقود سيارتها، وتعشق ثلاثة رجال، وتتردد على طبيب الأسنان، وستحل الأسبوع المقبل، لماذا هذه المرأة تجد وقتاً للقراءة، بعكس هذا الأعزل العفيف الذي يعيش من مردود أمواله؟

إن وقت القراءة وقت مختلس دائماً! (كوقت الكتابة ووقت العشق، على فكرة).

مختلس من ماذا؟

لنقل إنه مختلس من واجب العيش.

وهذا هو، بلا شك، السبب الذي يجعل من المترو - وهو رمز لهذا

الواجب - أكبر مكتبة في العالم.
زمن القراءة، كرمن العشق، يزيد من طول زمن العيش.
إن كان علينا أن نتعامل مع الحب من وجهة نظر برنامج عملنا اليومي، من
كان سيخاطر ويعشق؟ من يملك الوقت ليكون عاشقاً؟ ومع ذلك، هل رأينا
يوماً مُحباً لا يجد الوقت للعشق؟
لم يكن لدى أبداً الوقت للقراءة، لكن أبداً لم يستطع شيء ما أن يمنعني من
إنهاء رواية أحبتها.
لا تخضع القراءة لتنظيم الوقت الاجتماعي، بل هي، كالحب، أسلوب
حياة.
ولا يكمن السؤال في معرفة إن كان لدى الوقت للقراءة أم لا (وهو في
الحقيقة وقت لن يمنحني إياه أحد)، بل في معرفة إن كنت سأمنح نفسي أم لا
سعادةً أن أكون قارئاً.
نقاش يلخصه أبو ترسيرحة موزة وجزمة سانتيا غ على شكل شعار رهيب:
- وقت القراءة؟ إنه في جيبي!
وعندما رأه أبو ثياب ماركة بـ لغتون يخرج من جيبيه كتاب ملامح خريفية
لジム ハリソン (طبعة ١٠/١٨) وافق على رأيه قائلاً بتأمل:
- نعم... عندما نقوم بشراء سترة، أهم شيء هو أن تكون جيوبها على
المقاس المطلوب!

في لغة الآرغو^١ نقول ”ربط“ بدل قرأ.
وفي المعنى المصور يسمى الكتاب الضخم ”بلوكة“. يكفي أن تفك الأربطة حتى تحول البلوكة إلى غيمة.

١ الآرغو هي من اللغات العامية، وهي لغة خاصة بجماعة معينة كشباب الضواحي، أو عمال مهنة ما... إلخ. (م)

هناك شرط وحيد للتصالح مع القراءة: ألا نطلب شيئاً بال مقابل. أي شيء، إطلاقاً. ألا نقيم أي سورٍ معرفي مسبق حول الكتاب. ألا نطرح أي سؤال. ألا نعطي أية وظيفة. ألا نضيف ولو كلمة واحدة إلى كلمات الكتاب. لا أحکام قيمة، ولا شرح مفردات، ولا تحليل نص، ولا إشارات تتعلق بالسيرة الذاتية... أن نمنع أنفسنا من الكلام مطلقاً عن الكتاب.

قراءة - هدية.

قراءة وانتظار.

الفضول لا يُفرض، بل يتم إيقاظه.

القراءة، القراءة، والثقة بالعيون التي تفتح، وبالوجوه التي تفرح، وبالسؤال الذي يرى النور، والذي سيجرّ وراءه سؤال آخر.

إن كان التربوي القابع في داخلي يستاء من عدم "تقديم العمل ضمن طرفه"، فإن من الواجب إقناع هذا التربوي بأن الظرف الوحيد الذي له قيمة، في الوقت الحالي، هو "طرف هذا الصف".

دروب المعرفة لا تقود إلى هذا الصف، بل منه تنطلق!

حتى الآن، أقرأ روايات لمستمعين "يعتقدون أنهم لا يحبون القراءة". وبالتالي لا يمكن تعليمهم أي شيء جدي إن لم أوصل إلى إزالة هذا الوهم، إن لم أقم بعملي ك وسيط.

وعندما يتصالح هؤلاء المراهقون مع الكتب سيقومون بكل رحابة صدر بقطع الطريق الذي يقود من الرواية إلى كتابها، ومن الكاتب إلى عصره، ومن القصة المقرؤة إلى معانيها المتعددة.

المهم أن تكون جاهزين.
وأن نتظر بثبات هجوم الأسئلة.

- هل ستيفنسون إنكليزي؟
- لا، اسكتلندي.
- في أي عصر؟

- القرن ١٩ ، خلال حكم الملكة فيكتوريا.
يُقال إنها حكمت لوقت طويل، هذه الملكة...
- ٦٤ سنة، من ١٨٣٧ إلى ١٩٠١ .
- ٦٤ سنة!

- كانت تحكم منذ ١٣ سنة عندما ولد ستيفنسون، وقد مات قبلها بسبعين
سنوات. عمرك الآن ١٥ سنة، تصعد هي على العرش، وعندما يتلهي حكمها
سيكون عمرك ٧٩ سنة! (في زمن كان فيه متوسط عمر الإنسان حوالي ثلاثين
سنة). وقد كانت ملكة صارمة.

- ألهذا ولد هايد من كابوس!

جاءت هذه الملاحظة من الأرملة الصقلية، مما أثار دهشة عارمة عند
برلنغتون:

- كيف عرفت ذلك؟
أجابت الأرملة دون توضيح:
- استفسرت ...
ثم أضافت راسمة ابتسامة خفية:

- ويمكنني حتى أن أقول لك إنه كان كابوساً سعيداً. إذ إن ستيفنسون،
عندما استيقظ من نومه، دخل مكتبه وأغلق على نفسه الباب وحرر في يومين
نسخة أولى من الكتاب. وقد قامت زوجته بإجباره على إحراقها فوراً الشدة
ما كان يشعر بنفسه سعيداً في تقمص شخصية هايد وهو يسرق ويغتصب
ويذبح كل من يتحرك أمامه! ولم تكن الملكة الشديدة لتقبل بذلك. لذلك قام
باختراع شخصية جكيل.

لكن القراءة بصوت عال لا تكفي، يجب أن “نحكي” أيضاً، أن نقدم كنوزاً، أن ننشر كنوزاً على شاطئ الجهل. اسمعوا، اسمعوا، وانظروا كم ”القصة“ جميلة!

أفضل طريقة لفتح شهية القارئ هي أن نجعله يشتتم رائحة وليمة قراءة عظيمة.

وتقول الطالبة مليئة بالإعجاب عن جورج بيروس:

– لم يكن يكتفي بالقراءة، بل كان يحكي لنا! كان يحكي لنا دون كيشوت ومدام بوفاري! مقاطع كبيرة من الذكاء النبدي، لكنه كان يقدمها لنا أولاً وكأنها مجرد قصص. وكان سانشو يتحول، في فمه، إلى قريبة مليئة بالحياة، و”الفارس ذو الوجه الحزين“ يصير حزمة عظام كبيرة مسلحة بقناعات مؤلمة جداً! ولم تكن إيمان بوفاري، كما كان يروي لنا قصتها، مجرد غبية يتأكلها ”غبار المكتبات القديمة“ بل مخزن طاقة عظيمة. ومن خلال صوت بيروس كما نسمع فلوبير يهزأ لهذه الخسارة ”الع... ظ... ي... م... ة.“.

يا أعزائي أبناء المكتبات، أنتم يا حرّاس المعبد، شيء سعيد أن تجد كل كتب العالم مكانها في ذاكرتكم المنظمة بدقة (فلولاكم كيف كنت ساهتدى، أنا صاحب الذاكرة السيئة كارض غير مفتوحة؟)، شيء رائع أن تكونوا على علم بكل المواضيع المرتبة على الرفوف المحيطة بكم... لكن سيكون من المستحسن أيضاً أن نسمعكم ”تحكون“ روایاتكم المفضلة لزوار المكتبة التائدين في غابة القراءات الممكنة... كم سيكون الأمر جميلاً لو أنكم تفضلون وتقصّون عليهم أفضل ذكريات قراءاتكم! كونوا حكواتيين سحرة

وستقفز عندها الكتب من رفوفها لتحطّ في أيدي القراء.
ما أسهل أن نحكي رواية. ثلاث كلمات تكفي أحياناً.
ذكريات طفولة ذات صيف. في ساعة القيلولة. الأخ الأكبر ممدد على بطنه
فوق سريره، وذقنه بين راحتي يديه، غارق في ”كتاب جيب“ ضخم. والأخ
الأصغر قرد مضطرب لا تسعه الأرض:

”شو عم تقرأ؟“.

الكبير: الرياح الموسمية.

الصغير: حلو؟

الكبير: كثيراً

الصغير: شو عم يحكى؟

الكبير: قصة زلمي، بالأول كان يشرب ويُسكي، وبالأخير صار يشرب
مِي كثيراً
لم أكن بحاجة إلى أكثر من هذا كي أمضي نهاية ذلك الصيف غارقاً حتى
الصميم في رواية الرياح الموسمية للسيد لويس برومفيلد، وقد أخذتها من أخي
الذي لم ينهها أبداً.

سوسكند، ستيفنسون، ماركيز، دوستويفسكي، فانـت، شيسـتر هـيمـز، لـاجـلـوفـ، كالـفـينـوـ، كلـ هـذـهـ الرـواـيـاتـ التـيـ قـرـئـتـ عـشـواـيـاـ وـبـدـونـ مـقـابـلـ، كلـ هـذـهـ القـصـصـ الـمحـكـيـةـ، كلـ وـلـيمـةـ الـقـرـاءـةـ الـفـوـضـوـيـةـ هـذـهـ، منـ أـجـلـ مـتـعـةـ الـقـرـاءـةـ، كلـ هـذـاـ جـمـيلـ...ـ لـكـنـ الـمـنـهـاجـ الـدـرـاسـيـ، يـاـ جـمـاعـةـ، "ـالـمـنـهـاجـ"ـ!ـ الأـسـابـعـ تـمـرـ وـلـمـ بـدـأـ الـمـنـهـاجـ بـعـدـ.ـ الرـعـبـ مـنـ السـنـةـ التـيـ تـنـزـلـقـ مـنـ بـيـنـ يـدـيـنـاـ،ـ شـبـحـ الـمـنـهـاجـ الـذـيـ لـمـ يـتـهـ...ـ

لاـ تـخـافـواـ،ـ سـنـقـومـ بـ"ـمـعـالـجـةـ"ـ الـمـنـهـاجـ،ـ كـمـ يـقـالـ عـنـ تـلـكـ الـأـشـجـارـ التـيـ تعـطـيـ فـاكـهـةـ حـسـبـ الـمـقـاسـ الـمـطـلـوبـ.

بعـكـسـ ماـ كـانـ يـتـصـورـ أـبـوـ مـوزـةـ وـأـبـوـ جـرـمـةـ سـانـتـياـغـ،ـ لـنـ يـمـضـيـ المـعـلـمـ كـلـ السـنـةـ فـيـ الـقـرـاءـةـ.ـ لـلـأـسـفـ!ـ لـلـأـسـفـ!ـ لـمـاـ دـمـرـتـ مـتـعـةـ الـقـرـاءـةـ الصـامـةـ وـالـمـنـفـرـةـ بـهـذـهـ السـرـعـةـ؟ـ فـمـاـ يـكـادـ الـمـعـلـمـ يـبـدـأـ قـرـاءـةـ رـوـاـيـةـ بـصـوـتـ عـالـ حـتـىـ نـسـرـعـ إـلـىـ الـمـكـتـبـةـ لـنـعـرـفـ "ـبـقـيـةـ"ـ قـبـلـ الـدـرـسـ التـالـيـ.ـ وـمـاـ يـكـادـ يـحـكـيـ لـنـاـ قـصـصـيـنـ أـوـ ثـلـاثـ (ـلـاـ يـأـسـتـاذـ...ـ لـاـ،ـ لـاـ تـرـوـيـ لـنـاـ النـهـاـيـةـ!)ـ حـتـىـ نـلـتـهـمـ الـكـتـبـ الـتـيـ أـخـذـتـ مـنـهـاـ هـذـهـ القـصـصـ.

(ـمـنـ جـهـةـ أـخـرىـ،ـ لـنـ يـغـرـرـ الـأـسـتـاذـ بـهـذـاـ الـإـجـمـاعـ.ـ لـاـ،ـ لـاـ،ـ فـهـوـ لـمـ يـحـوـلـ،ـ بـضـرـيـةـ عـصـاـ سـاحـرـيـةـ،ـ جـمـيعـ الطـلـابـ الـعـصـيـنـ عـلـىـ الـقـرـاءـةـ،ـ إـلـىـ قـرـاءـةـ.ـ فـقـيـ بـدـايـةـ هـذـاـ الـعـامـ الدـرـاسـيـ مـنـ الـمـوـكـدـ أـنـ الـجـمـيـعـ يـقـرـأـ،ـ بـعـدـ أـنـ قـهـرـوـاـ خـوـفـهـمـ.ـ يـقـرـأـوـنـ بـدـافـعـ مـنـ الـحـمـاسـةـ وـرـوـحـ التـنـافـسـ،ـ وـرـبـماـ أـيـضاـ،ـ شـتـنـاـ أـمـ أـيـنـاـ،ـ لـإـرـضـاءـ الـمـعـلـمـ...ـ هـذـاـ الـمـعـلـمـ الـذـيـ يـحـبـ عـلـيـهـ مـنـ جـهـةـ أـخـرىـ أـلـاـ يـغـرـرـ بـهـذـهـ الـحـمـاسـةـ...ـ إـذـ لـاـ شـيـءـ يـفـتـرـ أـسـرـعـ مـنـ الـحـمـاسـةـ،ـ وـهـوـ غـالـبـاـ مـاـ عـرـفـ هـذـهـ التـجـرـيـةـ!ـ لـكـنـ،ـ فـيـ

الوقت الحالي، هناك إجماع على القراءة، بتأثير هذا الخليط المختلف في كل مرة، هذا الخليط الذي يجعل صفاتي يشعر بالثقة يتصرف كما لو كان فرداً واحداً، في نفس الوقت الذي يحافظ فيه كل واحد من طلابه الثلاثين على فرديته المستقلة.

هذا لا يعني أن كلاً من هؤلاء الطلاب سيصبح "محباً للقراءة" عندما يكبر. إذ ربما حلّت متعة أخرى محل متعة النص. لكن على الأقل، خلال هذه الأسابيع الأولى من العام الدراسي، وبما أن فعل القراءة - " فعل القراءة" الشهير! - لم يعد يخيف أحداً، فإن الجميع يقرأ، وأحياناً بسرعة كبيرة).

وما الذي يميز هذه الروايات إذاً حتى تقرأ بهذه السرعة؟ أهي سهلة القراءة؟ وما معنى "سهلة القراءة"؟ وهل ملحمة غوستا بيرلنغ سهلة القراءة؟ وكذلك الجريمة والعقاب؟ أهي أسهل من الغريب أو من الأحمر والأسود؟ لا، المشترك بين هذه الروايات هو أنها "غير مقررة في المنهاج الدراسي"، وهي ميزة لا تُثمن في نظر أصدقاء الأرمدة الصقلية الصغار، الجاهزين في كل لحظة لوصف أي عمل تفرضه وزارة التربية بهدف زيادة ثقافتهم بشكل مدروس بأنه عمل "ثقيل الظل". يا "للمنهاج" المسكين. طبعاً ليس الذنب إطلاقاً ذنب المنهاج. (رابليه، مونتيسي، لا بروير، مونتسكيو، فرلين، فلوبير، كامو، "تقيلو ظل"؟ لا، ما هذا المزاح...). إن "الخوف" هو السبب الوحيد الذي يجعل نصوص المنهاج الدراسي "ثقيلة الظل". الخوف من عدم الفهم، الخوف من الإيجابة الخاطئة، الخوف من الآخر "الواقف خلف النص، الخوف من اللغة الفرنسية التي يُنظر إليها كـ"مادة مستعصية؛ وكل هذا يجعل السطور مشوشة ويفرق المعنى في قراره الجُمل.

وقد كان أبو ثياب بورلنغتون وأبو سترة بيرفيكتو أول المتدهشين عندما أعلن لهم الأستاذ أن رواية فخ القلوب لسلنجر والتي تذوقوها لتوهم بمتعة كبيرة تعذب في هذه الفترة بالذات زملاءهم الأميركيين لسبب وحيد هو أنها مفروضة عليهم في المنهاج، بحيث أن من الممكن أن يكون هناك بيرفيكتو

تكساسى يقرأ خفيةً مدام بوفاري بينما أستاذه يحاول عبئاً أن يدفعه إلى قراءة
رواية سلنجر

هنا نفتح قوسين لتعرض الأرملة الصقلية:

- أستاذ، لا يوجد تكساسي يقرأ.

- فعلاً؟ من أين جئت بهذا؟

- من مسلسل "دالاس". هل رأيت يوماً شخصية واحدة من شخصيات
"دالاس" وفي يدها كتاب؟
(لنغلق القوسين).

باختصار، يبدأ الطلاب، وهم يحلقون فوق كل هذه القراءات وي safرون دون جواز سفر عبر الأعمال الأجنبية (خاصة الأعمال الأجنبية، إذ أن هؤلاء الإنكليز والإيطاليين والروس والأميركان يتمتعون بلباقه البقاء بعيداً عن "المنهاج")، وقد تصالحوا مع "ما يستأهل القراءة"، بالاقتراب على شكل دوائر وحيدة المركز من الأعمال التي "يجب قرائتها"، وقريباً ما يغطسون فيها، كما لو أن شيئاً لم يكن، لسبب وحيد وهو أن أميرة كليف¹ صارت رواية "كغيرها"، رواية جميلة كغيرها... (بل وأجمل من كل الروايات الأخرى، هذه الرواية التي تحكي قصة حب يحميه الحب، وهي قصة تألفها جيداً مراهقتهم المعاصرة، هذه المراهقة التي تنهما بتسرع ودون تدقيق بأنها تخضع لقدر المجتمع الاستهلاكي).

عزيزتي "السيدة لافايت" ،

إن كان الأمر يعنيك، فإني أعلمك بأن أحد صفوف الصف العاشر، وهو صف معروف عنه أنه "قليل الاهتمام بالأداب" و"مشاغب" بقدر لا يأس به، قد رفع روایتك أميرة كليف إلى قمة ما قرأ من روايات في ذلك العام.

١ رواية فرنسية من القرن السابع عشر كتبها ماري مادلين دو لافيت، المعروفة بلقب "السيدة لافايت". (م)

ستتم إذاً معالجة المنهاج، وستُدرس، حسب الأصول (وبطرق)، يا الله كم ستكون منهجية!، تقنيات الإنشاء وتحليل النصوص والشرح والتلخيص والنقاش، وكل هذه الآليات المجرّبة باتفاق بهدف أن نبيّن للسلطات المخولة يوم الامتحان أننا لم نكتف بالقراءة من أجل التسلية، بل أننا فهمنا، أيضاً، وأننا قمنا بـ”الجهد اللازم لفهمهم”， حسب التعبير المقدس.

والسؤال الذي يقوم على معرفة ماذا ”فهمنا“ (السؤال الأخير) هو سؤال لا تقصده الفائدة. فهمنا النص؟ نعم، نعم، طبعاً... لكننا فهمنا خاصة، بعد أن تصالحنا مع القراءة وبعد أن فقد النص مكانته ”كلغز“ معيق، أن جهودنا لاستيعاب النص أصبحت متعة، وأن مفهوماً الجهد والمتعة، بعد قهر الخوف من عدم الفهم، يتضادان ويعملان كل واحد في صالح الآخر، وهنا يصبح جهودنا ضمانة لزيادة متعتنا، ومتعة الفهم تغرقنا حتى الشماة في اضطرام عزلة الجهد.

ولقد فهمنا شيئاً آخر أيضاً. لقد فهمنا، مع شيء من التسلية، ”آلية“ المسألة، فهمنا الفن وكيفية ”التكلّم عنه“، وكيفية عرض ما نعرف بشكل جيد في سوق الامتحانات والمسابقات. لا فائدة من إخفاء ذلك، فهو أحد أهداف العملية. فـ”الفهم“، في قاموس الامتحانات والمسابقات، يعني فهم ما هو مُتظر منا. والنص ”المفهوم جيداً“ هو نص تتم المفاوضة عليه بذلك. والمتقدم الشاب للامتحان يبحث عن النتيجة الرابحة لهذه المفاوضة عندما يلقي نظرة ناعمة على وجه المُمتحن بعد أن قدم له شرحاً ذكيّاً - لكن ليس جريئاً زيادة عن الزرور - ليت من الشعر معروف بغموضه. (”يبدو الممتحن مبسوطاً، إذاً فلتتابع على هذا الطريق الذي يقود مباشرة إلى عالمة جيدة“).

من وجهة النظر هذه، يتعلّق نجاح مرحلة الدراسة الأدبية بالاستراتيجية المتبعة بقدر ما يتعلّق بفهم جيد للنصوص. وـ”الطالب السيئ“، في حالات كثيرة جداً، ليس إلا طالباً لا يملك بكل أسف أية مقدرات تكتيكية. فما يحدث هو أنه، لخوفه من عدم تقديم ما ننتظر منه، سرعان ما يخلط بين ما هو مدرسي وما هو ثقافي. وبما أنه من المهمّشين في المدرسة فسرعان

ما يظن أنه ممّن تنبذهم القراءة. وهو يتصور أن "القراءة" بحد ذاتها فعل نحبوi، ويحرم نفسه من الكتب طيلة حياته لأنّه لم يعرف أن يتكلّم عن الكتب عندما كان يُطلب منه ذلك.

وهذا يعني أنه بقي هناك أمر آخر يجب "فهمه".

بقي أن “نفهم” أن الكتب لم تكتب حتى يقوم أبني أو ابنتي أو الشباب بشرحها، بل لكي يقوموا، “إن رغبوا في ذلك”， بقراءتها.

فمعرقتنا ودراستنا ومستقبلنا المهني وحياتنا الاجتماعية شيء، وحميميتنا كقراء وثقافتنا شيء آخر. ومن الحسن تماماً أن نصنع خريجي بكالوريات وليسانسات وحاصلين على شهادة الأستاذية وشهادة المدرسة العليا للادارة، فالمجتمع يطلبهم، وهذا أمر لا نقاش فيه... لكن الأمر الأكثر “جوهرية” هو أن نوّقظ اهتمامهم بكل الصفحات، صفحات كل الكتب.

على طول سنوات الدراسة نفرض على التلاميذ، من الابتدائي إلى الثانوي، واجب الشرح والتعليق. وترعبهم الطريقة المتّبعة في ذلك لدرجة أنها تحرم العدد الأكبر منهم من رفقة الكتاب. ونهاية قررنا هذا تزيد الطين بلة، فتمررين ”الشرح والتعليق“ يسودها تماماً لدرجة أنه، في أغلب الأحيان، ينسينا الكتاب المطلوب شرحه. وهذا الصخب المعجمي يحمل اسمـاً حـرف معناه، وهذا الاسم هو: التواصل... .

فالتكلم إلى مراهقين عن كتاب والطلب منهم أن يتكلموا بدورهم عنه يمكن أن يكون ”مفيدة جداً، لكنه ليس غاية في حد ذاته. الغاية هي الكتاب؛ أن يكون الكتاب بين أيديهم. وأول حق من حقوقهم، كقراء، هو أن يصمتوا.

في أولى أيام العام الدراسي يحدث لي أحياناً أن أطلب من تلامذتي أن يصفوا لي مكتبة. لا أقصد مكتبة عامة، لا، أقصد الأثاث الذي تُرتب فيه الكتب. فيصفون لي جداراً، جرفاً صخرياً من المعرفة، مرتبًا بدقة شديدة، عصيًا على الاختراق، جداراً لا يمكننا إلا الاصطدام به والارتداد.

- القاريء؟ صفوالي قارئنا.

- قارئاً حقيقياً؟

- كما تريدون، مع أنني لا أعرف ماذا تقصدون بقارئ حقيقي. أكثرهم "احتراماً" يصفون لي "الآب" بذاته، على شكل ناسك من عهد ما قبل الطوفان، متربع منذ الأزل على جبل من الكتب التي امتصّ عصارتها حتى فهم علة كل شيء. ويرسم لي آخرون صورة لإنسان انطوائي تماماً، جدّ مستغرق في الكتب لدرجة أنه يصطدم بكل أبواب الحياة. ويقوم آخرون أيضاً بعمل رسم بالمقلوب، أي بتعداد كل المواصفات غير الموجودة عند القاريء: ليس رياضياً، لا يحب التمتع، لا يمزح، لا يحب الأكل ولا الشياط، ولا السيارات، ولا التلفزيون، ولا الموسيقا، ولا الأصدقاء... وأخيراً يقوم آخرون، أكثر "استراتيجية" من زملائهم، أمام مدرّسهم، بنحت تمثال أكاديمي للقارئ الوعي للوسائل التي تضعها الكتب تحت تصرفه كي يزيد من معرفته ومن وضوح رؤيته. ويخلط البعض كل هذه المستويات، لكن لا يقوم أيّ منهم، ولا واحد أبداً، بوصف نفسه، ولا بوصف أحد أفراد عائلته أو أيّاً من هؤلاء القراء الذين يصادفهم يومياً في المترو.

وعندما أطلب منهم أن يصفوا لي "كتاباً" فإنهم يصفون شيئاً عجيباً كأنه

آلـة طـائـرة قـادـمة مـن الفـضـاء: شيئاً غـريـباً تـاماً، مـن الصـعب جـداً وـصفـه بـسبـب البـساطـة المـقلـقة لـشـكـلـه وـالـتـعـدـد الـكـبـير لـوـظـائـفـه، "جـسـداً غـريـباً" محـمـلاً بـجـمـيع الـقـدـرـات وـبـجـمـيع الـأـخـطـار أـيـضاً، شيئاً مـقـدـساً، مـذـلـلاً وـمحـترـماً، مـوـضـوـعاً بـحـركـات قـدـسـية عـلـى رـفـوف مـكـتبـة لـا عـيـب فـيـها، لـكـي تـعـدـه طـائـفة مـرـيدـين ذـوـي نـظـرـات غـامـضـة.

الـغـرـالـ المـقـدـسـ.^١

طـيـبـ.

لـنـحاـول أـنـ نـنزـع بـعـضـاً مـنـ هـذـهـ النـظـرـةـ الـقـدـسـيةـ إـلـىـ الـكـتـابـ وـالـتـيـ حـشـرـناـهـاـ فـيـ روـؤـسـهـمـ، وـذـلـكـ بـتـقـدـيمـ وـصـفـ أـكـثـرـ "وـاقـعـيـةـ" لـلـطـرـيـقـةـ التـيـ تـعـاـمـلـ بـهـاـ،ـ نـحـنـ الـمـحـبـيـنـ لـلـقـرـاءـةـ،ـ مـعـ الـكـتـابـ.

١ الغـرـالـ (نـفـطـ الـغـيـنـ كـاجـبـيـنـ الـمـصـرـيـةـ) هوـ كـاسـ أوـ كـوبـ تـقـولـ الـأـسـاطـيـرـ الـمـسـيـحـيـةـ إـنـهـ اـسـتـخـدـمـ فـيـ "الـعـشـاءـ الـأـخـيـرـ" ثـمـ فـيـ جـمـعـ الـدـمـ السـائلـ مـنـ جـرـوحـ الـمـسـيـحـ وـهـوـ عـلـىـ الـصـلـيـبـ.ـ وـأـصـبـحـ فـيـ الـأـدـبـ الـغـرـبـيـ "الـبـحـثـ عـنـ الـغـرـالـ" مـرـادـفـاً لـلـبـحـثـ عـنـ الـخـلـاـصـ.ـ (مـ)

قليلة هي الأشياء التي توقف الشعور بالملكية المطلقة كما يفعل الكتاب. عندما تقع الكتب في أيدينا فإنها تصبح عبيداً لنا - نعم، عبيداً، لأنهم من مادة حية، لكنهم عبيد لا يفكرون أحد بإعتاقهم، لأنهم من أوراق ميتة. وهم بهذا يخضعون لأسوأ أنواع المعاملة، الناتجة عن حب شديد أو عن غضب عارم.

فهذا الكتاب ثنيت صفحاته (آخ! أي جرح أشعر به كل مرة أرى فيها صفحات الكتاب مثنيّة! "لكني أقوم بذلك حتى أعرف أين وصلللاللاللات!") ووضع فنجان القهوة على غلاف ذاك الكتاب مما يتسبّب بعده حالات... إضافة إلى الآثار النافرة لبقايا الطعام، والبقع التي سبّبها المرهم الواقي من الشمس... وهناك في عدة أماكن آثار إبهامي، إيهامي الذي أحشو به غليوني أثناء القراءة... وهذا المجلد من مجموعة "البليةاد" الذي يجف «وهو في حالة سيئة على مشع التدفأة بعد أن سقط في ماء الحمام (" Hammamك أنت يا عزيزتي لكن دوشى أنا") والهوا من المشحرة بالحواشي التي لا تكاد تُرى لحسن الحظ، والمقاطع المشار إليها بقلم تلوين مشع، والكتاب الذي صار معاقاً بشكل نهائي كونه بقي لمدة أسبوع كامل مفتوحاً ومكتباً على وجهه، والكتاب الآخر الذي ندعى حمايته بغلاف بلاستيكى مقرف وشفاف ذي انعكاسات بترويلية اللون... والسرير المختفي تحت جبل من الكتب المبعثرة كعصافير ميتة... وكومة الكتب من مجموعة "فوليو" وقد أسلمت إلى عفن السقيفة... وكتب الأطفال التعيسة التي لم يعد يقرأها أحد، وقد نفيت إلى بيت الاستراحة

الريفي الذي لم يعد يزوره أحد... وكل تلك الكتب التي تباع بأسعار بخسة على الأرصفة لتجار العبيد... إننا نذيق الكتب الأمرين. ولكن لا تحزننا إلا الطريقة التي يعامل “آخرون” بها الكتب...

منذ وقت ليس بالبعيد رأيت بأم عيني قارئة تلقي برواية ضخمة من نافذة سيارة تسير بسرعة كبيرة، والسبب هو أنها دفعت في سبيلها ثمناً مرتفعاً جداً (لكرة ما امتدحها نقاد متذمرون جداً) ولكن خاب ظنها بها كثيراً. أما جد الروائي تونينو بناكينستا فقد وصل به الأمر إلى “تدخين” أفلاطون! كان سجين حرب في مكان ما من ألبانيا، وكانت معه بقية من تبغ في زاوية من جيده، ونسخة من كراطيل¹ (من يفهم ما الذي كانت تفعله هذه النسخة هنا؟)، وعود كبريت... و“تشخت”! طريقة جديدة في الحوار مع سقراط... بواسطة إشارات دخانية.

آخر، أكثر تراجيدية، من آثار الحرب ذاتها: ألييرتو مورافيا وإلسا مورانت، وقد أُجبرا على الالتجاء لعدة أشهر في كوخ راع. لم يستطعوا أن ينقذان سوى كتابين: الكتاب المقدس والاخوة كرامازوف. هنا وقعت مشكلة خيار معقدة: أي هذين الصرحين سيستخدمان كورق توايلت؟ ومهما كان الخيار موجعاً فهو خيار. واختارا... والألم يتعصّرّهما.

ومهما بلغت قدسيّة الحديث الذي يدور حول الكتب، فإنه لم يولد ذلك الذي سيمعن بيبي كارفالو، الشخصية المفضلة للإسباني مانويل فاسكيز مونتالبان، من أن يشعل كل مساء ناراً كبيرة مستخدماً في ذلك صفحات كتبه المفضلة التي قرأها.

إنه ثمن الحب، إتاوة الحميمية. فما إن ننتهي من قراءة كتاب حتى يصبح “لنا”， تماماً كما يقول الأطفال: هذا “كتابي أنا”... إنه جزء لا يتجزأ مني. وربما كان هذا هو الأمر الذي يسبّه لا نعيد إلا بصعوبة كبيرة الكتب التي شعار لنا. إنها ليست سرقة تماماً... (لا، لا، فنحن لسنا بالسارقين، لا...)

١ حوار لأفلاطون يشارك فيه سقراط وآخرون، و موضوع اللغة والإشارات اللغوية. (م)

لنقل إنه انزلاق ملكية، أو بالأحرى، انتقال مادي: ما كان ملكاً للآخر تحت ناظره يصبح لي بينما تلتهمه عيني. وإذا أحببت ما قرأت فإني أجده صعوبة في رده.

لا أتكلم هنا إلا عن الطريقة التي نتعامل بها، نحن الأفراد، مع الكتب. لكن المشتغلين في حقل الكتب لا يعاملونها بأفضل منا. فهم يقصون الورق قريباً جداً من الكلمات لجعل كتب العجيب مربعة أكثر (فيأتي النص دون هامش وبحروف قرمها الاختناق)، وينفحون هذه الرواية الصغيرة، كما تُنفح القربة، لإقناع القارئ بأنه حصل على ما يستحق مقابل ما دفعه من نقود (فيأتي النص ضائعاً بين مساحات بيضاء كبيرة)، ويضعون أغلفة "شايقة حالها" تصرخ ألوانها وعناوينها الضخمة على بعد مئة وخمسين متراً: "اقرأني؟ أقرأني؟". ويصنعون نسخ "نواد" من ورق اسفنجي وغلاف كرتوني مزين برسوم مضيئة، ويدعون عمل نسخ "دولوكس" بحججة استخدام جلد زائف مزين بياقوط بزخارف ذهبية...

ويُدَلِّلُ الكتاب، منتج المجتمع الاستهلاكي جدأ، تقريراً كما يدلل فروج معلوم على الهرمونات، وبأقل بكثير مما يدلل صاروخ نووي. وعلى فكرة، ليست المقارنة مع الفروج المغذي بالهرمونات وذي النمو اللحظي مجرد مقارنة ساذجة إن طبقناها على ملايين الكتب "الظرفية" التي تكتب في أسبوع بحججة أنه، في هذا الأسبوع بالذات، فطست الملكة أو فقد الرئيس منصبه.

وبالتالي، إذا نظرنا إلى الكتاب من هذا المنظور فإنه ليس سوى مادة استهلاكية، لا أكثر ولا أقل، شيء عابر: فهو سرعان ما يُسحق إن لم "يمش سوقه"، غالباً ما يموت دون أن يقرأ.

أما بالنسبة للطريقة التي نتعامل بها الجامحة ذاتها مع الكتب، فقد يكون من المناسب أن نسأل المؤلفين أنفسهم رأيهم في ذلك. هاكم ما كتبته فلانيري أوكتور عندما علمت أن طلاباً يدرسون عملها:

إن كان المبدأ الذي يعتمده الأساتذة اليوم يقوم على اعتبار العمل

الأدبي وكأنه موضوع بحث يقبل أي جواب، شرط أن يكون
الجواب مبهمًا، فإنني أخشى الآيات الكشف الطلاب أبدًا متعة قراءة
الرواية...^١

١ فلانري أوكتور، عادة أن نكون، (منشورات غاليمار)، ترجمة غابرييل رولان.

هذا فيما يخصّ "الكتاب".

فلننتقل الآن إلى القارئ.

لأن هناك ما هو أكثر دلالة من طرق معاملتنا للكتب، إنها "طرق قراءتنا لها".

ففيما يخص القراءة نقوم نحن الآخرون، نحن "القراء"، بمنع أنفسنا كل الحقوق، وأولها الحقوق التي نمنعها عن الشباب الذين ندعى أننا نريد أن نجعلهم يحبون القراءة.

- ١) الحق في عدم القراءة.
- ٢) الحق في القفز عن الصفحات.
- ٣) الحق في عدم إنتهاء كتاب.
- ٤) الحق في إعادة القراءة.
- ٥) الحق في قراءة أي شيء.
- ٦) الحق في البوفارية.^١
- ٧) الحق في القراءة في أي مكان.
- ٨) الحق في أن نقطف من هنا وهناك.
- ٩) الحق في القراءة بصوت عالٍ.
- ١٠) الحق في أن نصمت.

^١ نسبة إلى شخصية إيمان بوفاري في رواية فلوبير. والمقصود بها حالة عدم الرضا التي تدفع بالشخصية إلى البحث عن تعويضات حلمية. (م)

سأتوقف بشكل اعتباطي عند الرقم ١٠ ، أو لأنه ”أصفى حساب“ ، وثانياً لأنه عدد الوصايا الشهيرة ومن الطريق أن نراه ، ولو لمرة ، يستخدم في لائحة مسموحات.

لأنه إن كنا نريد أن يقرأ أبني ، وأبنتي ، والشباب ، فإن من العادل أن نعطيهم الحقوق التي نمنحها لأنفسنا .

الفصل الرابع

ما الذي سيقرأه الآخرون؟^١ (أو حقوق القارئ الدائمة)

١ تلاعب بعبارة ”ما الذي سيقوله الآخرون؟“ . (م)

الحق في عدم القراءة

ككل لائحة "حقوق" تاحترم نفسها، فإن لائحة حقوق القراءة يجب أن تبدأ بالحق في عدم استخدام هذا الحق - أقصد الحق في عدم القراءة - وإنما هي ليست بلائحة حقوق بل فخُّ خبيث.

كبداية، يمكننا القول إن أغلب القراء يمنعون أنفسهم، يومياً، الحق في عدم القراءة. وحتى لو عانت شهرتنا من ذلك، في حين كتاب جيد وفيلم تلفزيوني سئ، الفيلم هو الذي يكسب في أغلب الأحيان، بأكثر مما نتمنى أن نعرف به. ثم إننا لا نقرأ بشكل متواصل. إذ غالباً ما تتناوب فترات قراءاتنا مع فترات انقطاع طويلة، مجرد رؤية كتاب خلالها تثير فينا أبخرة عسر الهضم.

لكن الأهم من ذلك يكمن في مكان آخر.

فنحن محاطون بعدد كبير من الأشخاص المحترمين تماماً، والحاصلين أحياناً على شهادات عالية، ومنهم من هو "رفيع المستوى" - وحتى أن بعضهم يملك مكتبات رائعة جداً - ولكنهم لا يقرأون، أو نادراً ما يقرأون لدرجة أننا لا نفكّر، حتى مجرد التفكير، بإهدائهم كتاباً. فهم لا يقرأون، إما لأنهم لا يشعرون بالحاجة إلى ذلك، وإما لأنهم مشغولون جداً بشيء آخر (وبالتالي النتيجة هي نفسها، كون هذا الشيء الآخر يملأ وقتهم ويشغّلهم عن سواه)، وإما لأنهم يغذّون حباً آخر ويعيشونه بشكل

حصري مطلق. باختصار، هؤلاء الناس “لا يحبون القراءة”. لكن هذا لا يمنع أن يكونوا ممن يعاشرون، بل أن تكون معاشرتهم لذيذة (فهم)، على الأقل، لا يطلبون منا “كلما دق الكوز بالجرة” أن نقول لهم رأينا عن آخر كتاب قرأناه، وهم يوافرون علينا تحفظاتهم الساخرة على روائينا المفضل، ولا يعتبروننا مجانين لأننا سارعنا إلى شراء آخر كتاب لفلان الصادر عن دار نشر علتان، والذي قال عنه الناقد الفلانى كلاماً حسناً جداً. إنهم “إنسانيون”， مثلنا تماماً، وحساسون جداً أمام مصائب العالم، ومهتمون بـ“حقوق الإنسان” ومصرّون على احترامها ضمن نطاق تأثيرهم الشخصي، وهذا مما لا يُستهان به – ولكن المشكلة هي أنهم لا يقرأون. “يصطفلوا”.

فكرة أن القراءة “تونسن الإنسان” صحيحة في مجلتها، حتى لو عانت أحياناً من بعض الاستثناءات المزعجة. فلا شك أننا نصبح أكثر “إنسانية” بقليل – المقصود بذلك أننا نصبح أكثر تضامناً بقليل مع الجنس البشري (أي نصبح أقل “توحشاً”) – بعد قراءة تشيخوف منا قبل قراءته.

لكن لنحذر من أن نرفق هذه الفكرة بنتيجة حتمية يُعتبر بموجبها، وبشكل مسبق، كل شخص لا يقرأ وحشاً محتملاً أو غبياً لا يقارب، وإلا فإننا سنحوّل القراءة إلى “ازام أخلاقي”， وسيكون ذلك بداية تصعيد سيءٍدي بنا في وقت قصير إلى الحكم، مثلاً، على “أخلاقية” الكتب نفسها، بالاستناد إلى معاير لا تحترم إطلاقاً حرية أخرى لا يمكن سلبها: أقصد حرية الإبداع. عندها سنصبح نحن الوحوش مهماً كنا “قارئين” كباراً. وما أكثر الوحوش من هذا النوع على امتداد العالم!

بكلام آخر، “حرية الكتابة لا يمكنها أن تتلاءم مع واجب القراءة”. أما الواجب التربوي فإنه يقوم، في الحقيقة، عند تعليم الأطفال القراءة وتعريفهم بعالم الأدب، على إعطائهم الوسائل الالزمة للحكم بحرية إن كانوا يستشعرون “الحاجة للكتب” أم لا. لأنه، حتى لو تقبلنا تماماً فكرة أن يرفض إنسان عادي القراءة، فمن غير المطاق أبداً أن يكون هذا الإنسان – أو أن يظن نفسه – مرفوضاً من قبلها.

إنه لحزن عميق، وعزلة داخل العزلة، أن يكون المرء منفياً عن عالم الكتب - حتى لو كانت من الكتب التي يمكن الاستغناء عنها.

الحق في القفز عن الصفحات

لقد قرأت الحرب والسلم للمرة الأولى وعمرني اثنا عشر أو ثلاثة عشر عاماً (بالأحرى ثلاثة عشر، فقد كنت في الصف السابع ولم أكن "مسقاً"). فمنذ بداية العطلة، العطلة الصيفية، كنت أرى أخي (نفس الأخ الذي ذكرته بصدر الرياح الموسمية) يغوص في هذه الرواية الضخمة، وأرى نظره وقد أصبح بعيداً كنظر المكتشف الذي لم يعد يهتم بلده الأم منذ وقت طويل.

- أهو كتاب جميل إلى هذا الحد؟

- رائع!

- عم يتكلم؟

- إنه قصة فتاة تعشق شاباً ثم تتزوج من شاب ثالث.

لقد تمتع أخي دائمًا بموهبة التلخيص. ولو يقبل الناشرون بتشغيله كي يكتب "ملخص الكتاب" (هذه الملخصات المثيرة للشفقة والتي تُلصق على الغلاف الأخير للكتاب لتحثنا على القراءة) لوفروا علينا كثيراً من الكلام الفارغ.

- هل تغيرني إيه؟

- بل أهبه لك.

كنت وقتها تلميذاً داخلياً، فكان هذا الكتاب هدية لا ثمن. مجلدان ضخمان قد يدهثانني طيلة الفصل الدراسي. ولم يكن أخي الذي كان يكبرني

بخمسة أعوام أبله تماماً (ولم يصبح أبله على فكرة) وكان يعرف أنه لا يمكن أن تخلص العرب والسلم بمجرد قصة حب، مهما كانت هذه القصة محبوبة بشكل جيد. لكنه كان يعرف أنني أفضل ما يلهم المشاعر، ويعرف كيف يواظف فضولي بملخصاته اللغزية. (”تربوبي“ في نظر قلبي). أعتقد أن اللغز الرياضي لجملته هو الذي جعلني أتخلى مؤقتاً عن سلسلتي ”المكتبة الخضراء“ و ”المكتبة الحمراء والمذهبة“، ومثلها سلسلة ”عالائم الطريق“^١، لألفي بنفسي في هذه الرواية. ”فتاة تعشق شاباً وتتزوج من ثالث“... لا أعتقد أن بإمكان أحد أن يقاوم. وبالفعل لم يخب أملني في هذه الرواية، رغم أن أخي أحطأني حساباته. لأننا، في الواقع، كنا أربعة واقعين في حب ناتاشا: الأمير أندريه، و ”الأزرع“ أناطول (لكن هل يمكن أن نسمى هذا حباً؟)، وبير بيزوخوف، وأنا. وبما أن لم يكن لي أي حظ في ذلك، فقد كان لزاماً علي أن ”أتقمص“ شخصية الآخرين (إلا أناطول، فهو لعين حقيقي!).

ومما كان يزيد هذه القراءة متعة هو أنها كانت تم في الليل، على ضوء مصابح جيب، تحت لحافي وقد اتخذ شكل خيمة في وسط مهجع من خمسين حالم وشخير ومتقلب في نومه. وكانت خيمة المراقب، حيث كانت تصيء ”النواصِة“، قريبة جداً، لكن لا يهم، ففي العشق يغامر المرء بكل شيء. مازلت أحس بسماكة هذين المجلدين وثقلهما بين يدي. كانا مجلدين من سلسة الجيب، عليهما الوجه الجميل لأودري هيبُرن تحت نظر مل فيرر^٢ الذي يedo كاميير بجفنيه الثقيلين كجفني طائر جارح عاشق. لقد قفزت من فوق ثلاثة أرباع الكتاب، مركزاً اهتمامي على ما يتعلق بحب ناتاشا. لقد حزنت، رغم كل شيء، لأنأتاول عندما قطعت ساقه، ولعنت الأمير أندريه الفظ لأنه بقي واقفاً أمام كرة المدفع، في معركة بورودينو... (”ولك العمي! ابطح على الأرض، يا ابن...، فالانفجار وشيك، وعليك أن تتجنب الإصابة

١ أسماء مجموعات كتب خاصة بالأطفال والناشئة. السلسلتان الأولى والثانية تحملان هذين الاسمين دلالة على لون الغلاف. (م)

٢ أودري هيبُرن ومِل فيرر مثلاً في فيلم شهير مستقى من الحرب والسلم ويحمل نفس العنوان. (م)

فهي تحبك ! ”)... لقد اهتممت بالحب والمعارك وقفزت من فوق شؤون السياسة والاستراتيجيا... وبما أن نظريات كلوسفيتز كانت عصية على فهمي فقد عصيت قراءتها... وقد تبعت عن قرب الخيبات الزوجية لبير بيزوخوف وزوجته هيلين (“ليست باللطيفة”， فعلًا لم أكن أجدهيلين لطيفة...) وتركت تولستوي يحاضر بمفرده عن المشاكل الزراعية لروسيا الخالدة...

نعم، لقد قفزت عن صفحات كثيرة.

وعلى كل الأطفال أن يفعلوا ذلك.

وهكذا يمكنهم، في سن مبكر، أن يقرأوا تقريرًا كل الروائع التي تعتبر صعبة بالنسبة لأعمارهم.

فإذ كانوا يرغبون في قراءة موبى ديك لكنهم يتربدون أمام تفاصيل ملفيل عن أدوات وتقنيات صيد الحيتان، عليهم ألا يتخلوا عن قراءتهم بل أن يقفزوا، أن يقفزوا هذه الصفحات وأن يلتحقوا “أشاب” دون الاهتمام بالباقي، كما يلاحق هو الهدف الأبيض لحياته ولموته! وإن أرادوا التعرف على إيفان وديمترى وأليوشَا كرامازوف وأبيهم اللامعقول، فما عليهم إلا أن يفتحوا ويقرأوا الإخوة كرامازوف، فهي مكتوبة ”من أجلهم“، حتى لو توجب عليهم القفز عن وصية الراهب زوسيماؤ عن ملحمة المفتش الكبير.

هناك خطر كبير يحدق بهم إن لم يقرروا بأنفسهم ما يناسبهم وذلك بالقفز عن الصفحات التي اختاروها، ”إلا قام آخرون بذلك مكانهم“. إذ سيسلح هؤلاء بمقص الحماقة الكبير وسيقصصون ما يرون أن ”صعب“ جداً عليهم، ولهذا الفعل نتائج مرعبة. موبى ديك أو البوءاء وقد لُخصت في ١٥٠ صفحة، فشُوّهت، وُخربت، وُقُرمت، وُحُنّقت، بأن ”أعيدت كتابتها“ لأجلهم بلغة فقيرة يفترض أنها لغتهم! كما لو أني حشرت نفسي فأعادت رسم ”غرنيكا“ بحججة أن يكاسو وضع فيها كثيراً من الخطوط بما لا يناسب عيناً عمرها اثنتا عشرة أو ثلث عشرة سنة.

ثم إننا حتى عندما نصبح ”كباراً“، ونرفض أن نتعرف بذلك، فإنه يحدث أحياناً أن ”نقفز من فوق الصفحات“، لأسباب لا تخص إلانا والكتاب الذي نقرأه. ويحدث أحياناً أن نمنع أنفسنا إطلاقاً من هكذا تصرف، وأن نقرأ كل

الكتاب حتى آخر الكلمة، ونحكم بأن الكاتب أطال في هذا المكان، وأنه في هذا المكان الآخر يغتني على شبابته لحتى لا داعي له، وأنه في مكان آخر استسلم إلى التكرار وفي مكان آخر أيضاً إلى البلاهة. ومهما قلنا عن ذلك فإن الملل العنيد الذي نفرضه على أنفسنا حينئذ لا علاقة له بالـ”واجب“، بل هو شكل من أشكال متعتنا كقارئين.

الحق في عدم إنتهاء كتاب

هناك ستة وثلاثون ألف سبب يمكن أن تدفعنا إلى ترك رواية قبل الوصول إلى نهايتها: الشعور بأننا سبق وقرأنا نفس الكلام، أو قصة لا تشتدّ انتباها، أو معارضتنا التامة لأطروحتات الكاتب، أو أسلوب يجعل شعر رأسنا يقف، أو بالعكس غياب الأسلوب وعدم وجود ما يعوض عن ذلك ويدفعنا إلى المتابعة... لا فائدة من تعداد الـ ٣٥٩٥ سبياً الباقي والّتي تشمل نخر الأسنان وضغوطات رئيسنا في العمل، أو زلزالاً أصاب قلباً فعطل عمل الدماغ.

أيسقط الكتاب من بين أيدينا؟
فلندعه يسقط.

ففي نهاية المطاف لا يمكن لأي شخص أن يكون مونتيسكيو وأن يكون بمقدوره أن يتمتع، وفق طلبه، بتعزية ساعة من القراءة.

لكن، من بين أسباب تخلينا عن متابعة كتاب ما، هناك سبب يستحق أن نتوقف عنده قليلاً: الشعور المبهم بالـ "هزيمة". فمثلاً أفتح الكتاب، وأقرأ، لكن سرعان ماأشعر بأنّي مفعم بشيء، أحس أنه "أقوى" مني. فأجمع خلاياي العصبية وأتصارع مع النص، لكن دون جدوى. ورغم شعوري بأنّ ما هو مكتوب يستحق أن يُقرأ، فإني لا أفقه شيئاً - أو ما لا يُذكر - وأشعر بـ "غرابة" لا سلطة لي عليها.

فأتخلّى عن الكتاب.

أو، بالأحرى، أدعه جانباً. أرتبه في مكتبتي وبذهني مشروع غامض بائي سأعود إليه ذات يوم. فروايات بيتر سبورغ لأندرية بيلي وأوليس لجويس وفوق البر كان لمالكوم لوري انتظرنـي عدة سنوات. وهناك كتب أخرى مازالت تنتظرني، ومن المحتمل أن بعضـا منها لن أعود إليه نهائـاً. ليس الأمر مأساوـاً، هكـذا هي الأمور. مفهـوم "النـصـحـ" هو شيء غـرـيبـ فيما يتعلـق بالقراءـةـ. فحتـىـ سنـ معـينةـ كـتـاـ صـغـارـاـ عـلـىـ بعضـ القراءـاتـ. ليـكنـ. لكنـ الكـتبـ الجـيـدةـ لاـ تـعـقـّـنـ، بـعـكـسـ قـتـانـيـ النـبـيـدـ الجـيـدـ. فـهـيـ تـنـتـظـرـنـاـ عـلـىـ رـفـوفـ مـكـتـابـاتـناـ، وـنـحنـ منـ يـشـيخـ. وـعـنـدـمـاـ نـعـتـقـدـ أـنـاـ صـرـنـاـ "نـاضـجـينـ" بـمـاـ فـيـهـ الـكـفـاـيـةـ لـكـيـ نـقـرـأـهـاـ نـعـودـ إـلـيـهـاـ مـنـ جـدـيدـ. وـهـنـاـ أـمـرـ مـنـ اـثـنـيـنـ: إـمـاـ يـتـمـ اللـقاءـ، إـمـاـ أـنـ يـتـكـرـرـ الفـشـلـ. وـرـبـماـ حـاـولـنـاـ مـرـةـ أـخـرىـ، وـرـبـماـ لـاـ. لـكـنـ مـنـ الـمـؤـكـدـ أـنـ الـخـطـأـ لـيـسـ خـطـأـ تـوـمـاسـ مـاـنـ إـنـ لـمـ أـسـطـعـ حـتـىـ الـآنـ أـنـ أـصـلـ إـلـىـ قـمـةـ جـبـلـ السـحـرـيـ.

الرواية الكـبـيرـةـ التـيـ لاـ تـنـصـاعـ لـنـاـ لـيـسـ بـالـضـرـورـةـ "أـصـعـبـ" مـنـ غـيرـهـاـ...ـ لـكـنـ بـيـنـهـاـ -ـ مـهـمـاـ كـانـتـ عـظـمـتـهـاـ -ـ وـبـيـنـاـ -ـ مـهـمـاـ بـلـغـتـ درـجـةـ تـقـدـيرـنـاـ لـقـدـرـتـاـ عـلـىـ "فـهـمـهـاـ" -ـ لـيـسـ هـنـاكـ تـفـاعـلـ كـيـمـيـاـيـ. وـيمـكـنـ ذـاتـ يـوـمـ أـنـ "تـنـسـجـ" مـعـ أـعـمـالـ بـوـرـخـسـ التـيـ كـانـتـ تـفـصـلـنـاـ عـنـهـاـ مـسـافـةـ حـتـىـ الـآنـ، لـكـنـاـ رـبـماـ نـبـقـىـ طـيـلـةـ حـيـاتـاـ غـرـبـاءـ عـنـ أـعـمـالـ مـوزـيـلـ...ـ

هـنـاـ، لـدـيـنـاـ الـخـيـارـ: إـمـاـ نـظـنـ أـنـهـاـ "غـلـطـتـنـاـ"، وـأـنـ عـقـلـنـاـ نـاقـصـ، وـأـنـ فـيـنـاـ بـعـضـاـ مـنـ حـمـاـقـةـ لـاـ يـمـكـنـ قـهـرـهـاـ، أـوـ أـنـ بـحـثـ مـنـ جـهـةـ الـمـفـهـومـ الـمـتـجـادـلـ عـلـيـهـ، أـقـصـدـ مـفـهـومـ "الـذـوقـ"ـ، وـأـنـ نـحاـولـ وـضـعـ لـائـحةـ بـأـذـواـقـنـاـ.

إـنـهـ لـمـ الـحـكـمـةـ أـنـ نـطـلـبـ مـنـ أـطـفـالـنـاـ اـتـبـاعـ هـذـهـ الـطـرـيقـةـ الـأـخـيـرـةـ. خـاصـةـ أـنـ بـامـكـانـهـاـ أـنـ تـقـدـمـ لـهـمـ الـمـتـعـةـ النـادـرـةـ التـالـيـةـ: أـنـ نـعيـدـ الـقـرـاءـةـ وـقـدـ فـهـمـنـاـ "لـمـاـ" لـاـ نـحـبـ هـذـاـ الـكـتـابـ. وـهـذـهـ الـمـتـعـةـ النـادـرـةـ الـأـخـرـىـ: أـنـ نـسـمـعـ دونـ تـأـثـرـ، مـدـعـيـ الـعـلـمـ الـجـاهـلـ الـمـسـؤـولـ عـنـاـ يـصـرـخـ فـيـ آـذـانـاـ:

ـ ماـذـاـ!!!!!! أـيـعـقـلـ؟ـ أـلـاـ تـحـبـ ستـانـدـ!!!!!!؟ـ

نعمـ، يـعـقـلـ.

الحق في إعادة القراءة

إعادة قراءة ما رفضني في المرة الأولى، إعادة القراءة دون القفر عن بعض المقاطع، إعادة القراءة من منظور جديد، إعادة القراءة للتأكد، نعم... إننا نمنح أنفسنا كل هذه الحقوق.

لكتنا نعيد القراءة قبل كل شيء بلا هدف، لمجرد متعة التكرار، ولفرح اللقى، ولووضع الحميمية على المحك.

“أيضاً، أيضاً”， هكذا كان يهتف الطفل الذي كنّاه. إعادةنا لبعض القراءات ونحن بالغين تشكّل جزءاً من هذه المتعة: الافتتان بديموحة الأشياء، وأن نجدها في كل مرة مفعمةً باندهاشات جديدة.

الحق في قراءة أي شيء

فيما يتعلّق بالـ”ذوق“، فإن بعضاً من طلابي يعانون كثيراً عندما يجدون أنفسهم أمام موضوع التعبير التقليدي جداً: ”هل يمكن أن نتكلّم عن روایات جيدة وروایات سيئة؟“ وبما أنهم غالباً لطفاء، رغم مظهرهم الذي يقول ”أنا لا أتنازل عن شيء“، فهم يعالجون الموضوع من جانبه الأخلاقي فقط بدل أن يدرسوه جانبه الأدبي، وبالتالي فهم لا يعالجون السؤال إلا من زاوية الحريات. وهكذا فإن مجموع مواضيعهم يمكن تلخيصها بهذه العبارة: ”لا، لا، ما هذا الكلام؟ بإمكاننا أن نكتب كل ما نريد، وكل الأدوات، من ناحية القراء، موجودة في الطبيعة!“.

نعم، نعم، نعم... إنه موقف مشرّف تماماً...
لكن هذا لا يمنع أن هناك روایات سيئة، ويمكن أن نذكر أسماء وأن نقدم أدلة.

لكي لا نطيل دعونا نتكلّم بالجملة: يمكننا القول إن هناك ما يمكن تسميته ”الأدب الصناعي“ الذي يكتفي بإعادة إنتاج لا نهاية لنفس القصص، ويلفظ بأضطراد نماذج بشرية منمّطة كما تلفظ المعامل بضاعتها، ويتجاهر بالمشاعر والأحساس القوية، ويستغل كل الفرص التي تقدمها الأخبار اليومية لكي ”يبين“ قصة خاصة بهذا الخبر أو ذاك، ويقوم بـ”دراسة السوق“ لكي يبيع، حسب ”حالة السوق“، هذا ”المتوج“ أو ذاك، الذي يفترض أنه سيثير

إعجاب هذه الفتنة أو تلك من القراء.

هذه الروايات هي روايات "سيئة"، بالتأكيد.

لماذا؟ لأن لا علاقة لها بالإبداع، بل هي إعادة إنتاج لـ"أشكال" سابقة؛ ولأنها عملية تبسيط (أي عملية كذب) في حين أن الرواية فن حقيقة (أي فن تعقيد)؛ ولأنها، إذ تدغدغ آلياتنا، تنيم فضولنا؛ وأخيراً، وبشكل خاص، لأن الكاتب "لا وجود له فيها"، ولا الواقع الذي يدعى وصفه لنا.

باختصار، أدب "جاهز" للمتعة، مصنوع في قالب ويؤود لو أنه يقولينا معه.

لا تظنّ أن هذه الحمامات ظاهرة حديثة العهد مرتبطة بدخول الكتاب عصر التصنيع. لا، أبداً. فاستغلال ما يثير الأحاسيس، والتهاب المشاعر العابر، والرعشة السهلة في جمل لا كاتب فيها، ليست أموراً حديثة العهد. ولا أريد هنا أن أذكر سوى مثالين، فقد تورطت فيها قصص الفروسيّة ثم الرومانسية بعدها بوقت طويلاً.

وبما أنه "لاتكرهوا شيئاً عساه خيراً" فإن ردة الفعل على هذا الأدب الذي حاد عن الطريق وهبنا اثنين من أحمل الروايات في العالم: دون كيشوت ومدام بوفاري.

هناك إذاً روايات "جيدة" وروايات "سيئة".

وفي أغلب الأحيان، أول ما نصادفه على طريقنا هي الروايات السيئة. وبصراحة، عندما جاء دوري، أذكر أنني وجدت هذه الروايات " مليحة كثير". لقد كان حظي كبيراً: فلم يسخر أحد مني، ولم يرفع أحد عينيه إلى السماء، ولم يصفني أحد بالغبي. فقط، تركت، على طريقي، بعض الروايات "الجيدة" دون أن تمنع عنِي الروايات الأخرى. كان ذلك تصرفًا حكيمًا.

ولفترة ما، نقرأ كل شيء، الحسن والرديء. كما أنها لا تخلي، بين عشية وضحاها، عن قراءات طفولتنا. هكذا تختلط الأشياء. فنخرج من الحرب والسلم لنغوص من جديد في روايات "المكتبة الخضراء"؛ ونترك مجموعة "هارلكان" (وهي قصص تتحدث عن أطباء وسيمين وممرضات مستحقات للاحترام) لتنتقل إلى بوريٍس باسترناك وروايته الدكتور جيفاغو - وهو أيضاً

طيب، ولا راً ممرضة مستحقة للاحترام تماماً!
ثم يأتي يوم ينتصر فيه باسترناك.

بشكل غير محسوس، تحثنا رغباتنا على معاشرة "الحسن". فنبحث عن كتاب، ونبحث عن كتابات. لقد انتهى زمن الاكتفاء بأصدقاء اللعب وحدهم، وحان زمن المطالبة بـ"رفاق" الكينونة. الحكاية وحدها لم تعد تكفينا. لقد حل الوقت الذي صرنا نطالب فيه الرواية بشيء آخر غير الإرضاء المباشر والمحضي لأحساسنا.

تكمّن إحدى أكبر فرحتـات "التربوي" - حيث كل قراءة مسموحة - في رؤية أحد تلاميذه يغلق بنفسه بباب معمل "الكتب الناجحة" لكي يصعد ويمـلأ رئـيه بالهواء عند الصديق بلزاك.

الحق في البوفارية (مرض ينتقل نصياً)

هذه هي، باختصار، “البوفارية”， إنها الإرضاe المباشـر والمحـصـري لأحـاسـيسـنا: ينتفـخـ العـخيـالـ، تـتوـتـرـ الأـعـصـابـ، يـتسـارـعـ القـلـبـ، يـنـتـشـرـ الأـدـرـيـنـالـينـ، ويـتمـ التـماـهـيـ عـلـىـ كـلـ الـمـسـتـوـيـاتـ، وـيـخـدـعـ الدـمـاغـ (مـؤـقـتـاـ) بـشـكـلـ كـبـيرـ... إنـهـاـ “ـحـالـتـنـاـ”ـ الـأـولـىـ، كـلـنـاـ، كـفـرـاءـ. ماـ أـذـهـاـ.

لـكـنـهـاـ حـالـةـ مـرـعـبةـ تـامـاـ بـالـنـسـبـةـ لـلـمـرـاقـبـ الـبـالـغـ الـذـيـ يـسـرعـ، فـيـ أـغـلـبـ الـأـحـيـانـ، إـلـىـ إـشـهـارـ “ـكـتـابـ جـيدـ”ـ فـيـ وـجـهـ الـبـوـفـارـيـ الشـابـ، وـهـوـ يـصـبـحـ: - بـشـرـفـكـ، أـلـيـسـ مـوـبـاسـانـ “ـأـفـضـلـ”ـ، آـ؟ـ مـهـلاـ... يـجـبـ أـلـآنـقـعـ، نـحـنـ أـيـضـاـ، فـيـ الـبـوـفـارـيـ، وـأـنـ نـقـولـ إـنـ إـيمـاـ لـيـسـ، فـيـ النـهـاـيـهـ، سـوـىـ شـخـصـيـةـ روـائـيـةـ، أـيـ نـتـيـجـةـ لـلـحـتـمـيـةـ الـتـيـ أـدـتـ بـمـوجـبـهاـ الـأـسـبـابـ الـتـيـ زـرـعـهـاـ غـوـسـتـافـ إـلـىـ النـتـائـجـ الـتـيـ تـمـنـاـهـاـ فـلـوـبـيرـ - مـهـماـ كـانـ درـجـةـ صـحـةـ هـذـهـ النـتـائـجـ.

بـكـلامـ آخرـ، إـنـ كـانـتـ اـبـتـيـ تـقـرـأـ روـايـاتـ مـجـمـوعـةـ “ـهـارـلـكـانـ”ـ فـلـاـ يـعـنيـ ذـلـكـ أـنـهـاـ سـتـمـوتـ بـاـبـتـلاـعـهـاـ الزـرـنـيـخـ¹ـ بـالـمـعـرـفـةـ.

١ـ كـمـاـ يـحـدـثـ فـيـ روـايـاتـ العـشـقـ الرـخـيـصـةـ. (مـ)

فإذا فرضنا عليها أينما في هذه المرحلة من قراءاتها، تكون قد حكمنا على أنفسنا بالابتعاد عنها بإنكارنا مراهقتنا نحن أنفسنا. ونكون أيضاً قد حرمناها من المتعة، التي لا تعادلها متعة، في أن تخلى بنفسها غداً عن النماذج النمطية التي تشير لها كثيراً اليوم.

من الحكمة أن تصالح مع فترة مراهقتنا؛ فكرهنا واحتقارنا وإنكارنا، أو، بكل بساطة، نسياننا للمرأة الذي كناه، هو في حد ذاته موقف مراهق وفهم للمرأة على أنها مرض قاتل.

من هنا كانت ضرورة أن نذكر أولى انفعالاتنا كقراء، وأن نقيم تمثلاً لقراءاتنا الماضية، بما فيها قراءاتنا الأكثر «غباء». فهي تلعب دوراً قيماً جداً: إنها تثير عواطفنا أيام ما كنا عليه ونحن نضحك مما كان يثير عواطفنا. وسيزداد بالتأكيد احترام وحنان الصبيان والبنات الذين يقاسموننا حياتنا.

وأن نقول كذلك إن البوفارية هي - مع بضعة أشياء أخرى - أكثر شيء يشترك فيه الناس في العالم: فالمرء لا يراها إلا عند الآخرين. وفي نفس الوقت الذي نزدرى فيه غباء قراءات المراهقين، ليس من النادر أن نعمل على نجاح كاتب حسن الحضور على التلفاز، والذي نسخر منه بخبث ما إن تنتهي موضعته. وجود أدباء معشوقين، يمكن أن نفترسه بشكل كبير بهذا التناوب بين تهافتنا المتبع وإنكارنا الثاقب.

فنحن لا نُخدع أبداً، ودائماً ذوي بصيرة، نمضي وقتنا في الحلول محل أنفسنا، مقتعين إلى الأبد بأن مدام بوفاري موجودة عند الآخرين فقط. لا بد أن إيماناً كانت تشاركتنا القناعة ذاتها.

الحق في القراءة في أي مكان

”شالون - سور - مارن“^١، ١٩٧١، في فصل الشتاء.
ثكنة مدرسة المدفعية التطبيقية.

أثناء توزيع ”السخرة“ صباحاً يتطلع العسكري فلان (حامل الرقم العسكري ١٤٦٧٢ / ١) للقيام بالسخرة التي يتجنبها الجميع، السخرة الأكثر جحوداً، والتي غالباً ما تُفرض كعقوبة ويتحاشاها أكثر المحترمين صلاية: أقصد السخرة الشهيرة، المحطة للقدر، الملعونة الاسم، ”سخرة المراحيض“.

يطلبها كل صباح.

ودائماً بنفس الابتسامة (الداخلية).

- سخرة المراحيض؟

يقوم بخطوة للأمام:

- فلان!

وبخطورة شديدة، كخطورة ما قبل الهجوم، يمسك بالمكنسة التي تتدلى منها الممسحة القماشية، كما لو أنه يمسك ببرق سريته، ويختفي، مرافقاً بارياد كبير من باقي العناصر. إنه لشجاع إذ لا أحد يتبعه. فالجيش بأكمله

١ مدينة شمال شرق فرنسا. (م)

يقي مختبئاً في خندق السخرات المشرفة. تمضي الساعات، ويظن الآخرون أنه تاه، وينسونه تقريباً، بل ينسونه فعلاً. لكنه يظهر في نهاية الفترة الصباحية، ويضرب نعله في الأرض لتأدبة تقريره لمساعد السرية: "المراحيض نظيفة تماماً، حضرة المساعد!" ويستعيد المساعد المكنسة والممسحة وفي عينيه تساؤل عميق لا يفصح عنه. (فاحترام الإنسان واجب). يؤدي العسكري التحية، ويدور على عقبيه، ثم ينطلق حاملاً سره معه.

وهذا السر يشكل ثقلاً لا يأس به في الجيب اليمين لبدلته العسكرية: مجلد من ١٩٠٠ صفحة من سلسلة "البلياد" يضمّ أعمال نيكولاي غوغول. ربع ساعة مساحة مقابل فترة صباحية كاملة مع غوغول... كل صباح، منذ شهرين شتائين، يقوم المجند فلان، وهو جالس على "العرش"^١ بعد أن أقفل الباب جيداً خلفه، بالتحليق عالياً فوق عوارض الحياة العسكرية. كل غوغول! من سهرات أوكرانيا الحنينية إلى قصص بيترسبورغ، مروراً برواية تاراس بوليا المهولة، وبالسخرية السوداء لـ"النفوس الميتة"، إضافة إلى مسرحيات ومراسلات غوغول، هذا "الطر طوف" الكبير.

لأن غوغول هو "طروف" الذي ربما كان خلق مولير - وربما ما كان الجندي فلان ليفهم ذلك لو أنه ترك هذه السخرة لغيره.

إن الجيش يحب الاحتفال بعثرات رجاله في الحروب. ومن هذه المأثرة لم يبق سوى بيتين من الشعر، محفورين عالياً جداً على "سيفون" المرحاض، وهما يبتان من أفحى أبيات الشعر الفرنسي:

نعم، أؤكّد، ودون كذب - اجلس أيها التربويّ -
أني قرأت كل غوغول في المرحاض الهنّي.

١ كتابة عن كرسى المرحاض.

(من جهته، كان كليمانسو العجوز، الملقب بـ”النمر“، وهو أيضاً عسكري شهير، كان يلهم بذكر ”كتام“ مزمن لولاه، حسبما كان يؤكد، لما تمت سعادة قراءة مذكرات سان سيمون).

الحق في أن نقطف من هنا وهناك

أنا أقطف، نحن نقطف، فلندعهم يقطفون من هنا وهناك.

المقصود أن نسمح لأنفسنا بتناول أي مجلد من مكتبتنا وفتحه عشوائياً والفرق فيه للحظة، لأننا فعلاً لا نملك سوى هذه اللحظة بالذات. بعض الكتب استعداد أكثر من غيرها لأن تنتقل فيها على هوانا، كونها تتالف من نصوص قصيرة ومنفصلة: كالأعمال الكاملة لـألفونس الـلي، أو وودي الـلين، كقصص كافكا أو ساكـي، كالأوراق الملصقة لجورج بـيرـوس، وأعمال العجوز الطيب لـاروشـفوـكو، وأغلب الشعراء... .

مع ذلك، يمكننا أن نفتح كتب بـروـست أو شـكـسـبـير، أو مـراسـلاتـ رـيمـونـ شـانـدـلـيرـ، على أية صـفـحةـ، والتـنـقـلـ هـنـاـ وـهـنـاـ، دون أدنـى خـطـرـ فيـ أنـ يـخـيـبـ أـمـلـناـ.

إن لم يكن لدينا الوقت ولا الإمـكـانـيةـ لـقضـاءـ أسبوعـ فيـ البـندـقـيـةـ، فـلـمـاـذاـ نـرـفـضـ أنـ نـقـضـيـ خـمـسـ دقـائقـ فيـهاـ؟

الحق في القراءة بصوت عالٍ

سألتها: أكان هناك من يقرأ على مسمعك قصصاً بصوت عالٍ عندما كنت صغيرة؟

فأجابتني: أبداً. إذ غالباً ما كان أبي مسافراً وأمي مشغولة جداً.

سألتها: إذن، من أين جاءك حب القراءة بصوت عالٍ؟

فأجابتني: من المدرسة.

فهتفت بفرح لسعادتي بسماع أن هناك من يعترف بفضل المدرسة: آه! أترى!

قالت لي: إطلاقاً. فقد كانت المدرسة "تمعننا" من القراءة بصوت عالٍ. كانت القراءة الصامتة من وقتها عقيدة العصر. مباشرةً من العين إلى الدماغ. نقل مباشر. سرعة، ونجاعة. مع تمرير فهم كل ستة أسطر. ديانة التحليل والشرح، منذ البداية! كان أغلب التلاميذ يموتون رعباً، ولم تكن تلك إلا البداية! إذا كنت تريد أن تعرف، فكل إجاباتي أنا كانت صحيحة، لكنني عند عودتي من المدرسة كنت أعيد قراءة كل شيء بصوت عالٍ.

- لماذا؟

- لأن ذلك كان يسحرني. فقد كانت الكلمات الملفوظة تبدأ بالتجسد خارجي أنا، كانت تحيا فعلاً. وعلاوة على ذلك، كان الأمر يبدو لي فعل عشق، بل العشق ذاته. كان لدى دائماً انتطاع بأن حب الكتاب يمرّ عبر الحب

ذاته. كنت أمدد دمای في سريري، مكانني أنا، وأقرأ لها. وكان يحدث أحياناً أن أنام قرب أقدامها، على البساط.

أصغي إلى قراءتي... أصغي إليها، فيبدو لي أنني أسمع ديلان توماس، ثملاً كاليأس، وهو يقرأ قصائد بصوته الذي يشبه الأصوات الكاتدرائية... أصغي إليها فيبدو لي أنني أرى ديكتر العجوز، ديكتر الهزيل الجسد والشاحب الوجه، في آخر أيامه، يصعد على خشبة المسرح... وجمهوره الكبير من الأميين وقد جمد فجأة وصمت لدرجة أن الكتاب يسمع وهو يُفتح... أوليفر توينيت... موت نانسي... سيقرأ لنا موت نانسي!...

أصغي إليها وأسمع صوت كافكا يضحك حتى الثمالة وهو يقرأ التحول على مسمع ماكس برود الذي يجد صعوبة في المتابعة... وأرى ماري شيلي الصغيرة تقرأ أجزاء مطولة من كتابها فرانكشتاين لبيرسي وللأصدقاء المذهولين... أصغي إليها وأتخيل مارتان دو غار وهو يقرأ كتابه آل تيو لأندريه جيد... إنهم جالسان على حافة نهر... مارتان دو غار يقرأ، لكن نظر جيد في مكان آخر... لقد رحلت عينا جيد إلى هناك، إلى حيث يغطس مراهقان... كمال يسربه الماء بالضياء... مارتان دو غار غاضب... لا، لقد قرأ جيداً... وجيد سمع كل شيء... ويكتيل له جيد المديع حول هذه الصفحات... لكن، مع ذلك، ربما يلزم تعديل هذا الشيء وذاك، وتغيير شيء من هنا وآخر من هناك... دوستويفסקי، الذي لم يكن يكتفي القراءة بصوت عالٍ، بل كان "يكتب" بصوت عال... دوستويف斯基، وقد انقطع نفسه، بعد أن قدم، وهو يصرخ، مرافعته ضد راسكولنيكوف (أو ديمتري كارامازوف، لم أعد أدرى)... دوستويفסקי يسأل آنا غريغورييفنا، الزوجة مختزلة النصوص: "ما قولك؟ ما هو القرار برأيك؟ آ، آ؟".

آنا: مدان!

دوستويف斯基 نفسه، بعد أن أملى عليها مرافعة الدفاع... "آ، آ، ماذا تقولين؟".

آنا: بريء!

نعم...

إنه لأمر غريب اختفاء القراءة بصوت عالٍ. ما كان سيكون رأي دوستويفسكي بذلك؟ وفلوبير؟ انتهت إمكانية تذوق طعم الكلمات في الفم قبل حشو الرأس بها؟ انتهت دور الأذن؟ انتهت الموسيقى؟ لم يعد هناك لعب، ولا تذوق لطعم الكلمات، وماذا أيضاً، آلم يصرخ فلوبير روایته مدام بوفاري حتى ثقب طبلتي أذنيه؟ أليس مؤهلاً أكثر من كل الآخرين، قطعاً، لمعرفة أن فهم النص يمرّ عبر صدى الكلمات التي يتحدر منه معناها؟ فلوبير الذي طالما تصارع مع موسيقى المقاطع التي ليست في محلها وحارب ضد تسلط الإيقاع، أليس هو من يعرف، أكثر من أي شخص آخر، أن المعنى يُلفظ؟ ماذا؟ نصوص صامدة لأذهان صرفة؟ إلى يا رابليه! إلى يا فلوبير! ويا دوستويفسكي! ويا كافكا! ويا ديكتنر! أتم يا صارخي المعاني الكبار، تعالوا إلى فوراً! تعالوا انفخوا في كيكم! فكلماتنا بحاجة إلى أجساد! فكلماتنا بحاجة إلى حياة!

صحيح أن صمت النص مريح... إذ لا مخاطرة هنا في موت ديكتنر بعد إحدى قراءاته العامة المتبعة جداً... النص والذات... كل هذه الكلمات وقد كُمنت أفواهها في المطبخ الرخي لذكائنا... كم نشعر بأهميتها خلال هذا النسج الصامت لشروحاتنا!... ثم إننا عندما نحكم على الكتاب خارجنا فإننا لا نخاطر بأن يحكم هو علينا... لأنه ما إن يتدخل الصوت حتى يفسح الكتاب عن أشياء كثيرة تخص قارئه... فالكتاب يقول كل شيء.

الإنسان الذي يقرأ بصوت عالٍ يكشف عن نفسه تماماً. فإن كان لا “يعرف” ما يقرأ، فجهله يظهر من خلال كلماته، وهو أمر تعيس، يُسمع. وإن رفض أن يحلّ في قراءته، فإن الكلمات تبقى بلا حياة، ويُحس بذلك. وإن ملأ النص بحضوره، فإن الكاتب يتراجع ونصبح أمام عرض سيرك، وهذا أمر يُرى. الإنسان الذي يقرأ بصوت عالٍ يعرض نفسه تماماً للعيون التي تسمعه.

وإن قرأ بشكل حقيقي، وإن استخدم لذلك معارفه وتحكّم بنفس الوقت بذلك، وإن كانت قراءته قراءة “تعاطف” مع جمهور المستمعين وكذلك مع

النص وكتابه، وإن توصل إلى جعلنا “نسمع” ضرورة الكتابة بايقاظه فيما
أكثر حاجاتنا للفهم غموضاً، عندها تفتح الكتب مصاريع أبوابها، ويتسارع
للدخول منها حشود أولئك الذين يعتقدون أنهم منفيون عن القراءة.

الحق في أن نصمت

يبني الإنسان بيوتاً لأنّه يعرف أنه حي، لكنه يكتب كتاباً لأنّه يعلم أنه فان. وهو يعيش ضمن جماعات لأنّ لديه غريرة التجمع، لكنه يقرأ لأنّه يعلم أنه وحيد. وهذه القراءة هي صحبة له لا تحلّ مكان أية صحبة أخرى، ولا تستطيع أية صحبة أخرى أن تحل محلها. وهي لا تقدم له أي تفسير قطعي حول مصيره، لكنها تنسج شبكة متينة من التواطؤات بينه وبين الحياة. تواطؤات متناهية الصغر وسرية تعبّر عن سعادة العيش المتناقضة في نفس الوقت الذي تبيّن فيه عبث الحياة المأساوي. بحيث أن الأسباب التي تدفعنا للقراءة غريبة كغراية الأسباب التي تدفعنا للعيش. ولم يفُوض أحد ليحاسبنا على هذه الحميمية. بالغون القلائل الذين أعطوني كتاباً لأقرأها تلاشوا دائمًا أمام الكتب وتجذّبوا تماماً أن يسألوني إن كنت قد ”فهمت“. هولاً، طبعاً، كت أكلّهم عن قراءاتي.

إن كانوا أحياء أم أمواتاً، أهدي إليهم هذه الصفحات.